

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

مكتبة

الأسرة

١٩٩٩

أم المواجهين

يحيى حقى
مسلة الكهنة
سلوك الأسلاك والكسور
رسمي في كسور وأسرى

لوحة للفنان عادل واسيلي



الجمعية المصرية العامة للكتاب

أم العواجز

أم العواجز

يحيى حقي



مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

أم العواجز

يحيى حقى

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة التنمية الريفيه

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

التنفيذ : هيئة الكتاب

الغلاف

الفنان: جمال قطب

الإشراف الفنى:

الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هي تصدر لعامها السادس على التوالي برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائماً كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ الذى يتلونها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

هذه مجموعة قصص ترجع لعهود مختلفة من
حياتي، يتضمن بعضها ذكريات الصبا
والشباب، ظلت تسألني، وأنا أتشاغل عنها،
أن أجمعها في كتاب، لنعيش معا من جديد
كأفراد الأسرة يجتمعون بعد تفرق تحت سقف
واحد، لا فرق عندي بين صغيرها وكبيرها،
جيلها وديميها، فلست أنا، بل الناس
- كدأبهم - هم الذين يحكمون .

« ي »

(يوليو ١٩٥٥)

أم العواجز

سبحان الذى وسع ملكه الخلق كله ، ولا اعتراض على حكمه فلا أبتغى هنا إلا أن أروى قصة إبراهيم أبى خليل وهو يهبط درجات الحياة ؛ كورق الشجر فى الخريف ، قد ترفعها الرياح قليلا ، ولكنها - حتى فى ارتفاعها - تنطق بالهبوط المكتوب عليها ، رويداً رويداً إلى أن يتوسد حدها الثرى وتدوسها الأقدام . شهادته وهو ينزل آخر درجات السلم . وقد علمت فيما بعد أنه يتيم وتلطم فى صغره ولا أدري أهو حضيرى أم ريفى ، واعتقادتى أنه من أولاد البلد ، واستفتح شقاءه بالخدمة فى المنازل ، ثم إذا به بائع ترمس على عربة يد صُفَّت عليها قنناوية ، زُيِّنت حلوقها بالورد والريحان ، وقد سمعت أنه فتح بعد ذلك دكاناً صغيراً للعطارة ، ثم ارتد بائعاً متجولاً كل بضاعته دبائيس وإبر مواعد الغاز ومشابك الغسيل ، يقفز بها من ترام إلى ترام . وفى حياته فترات متقطعة لم يصلنى خبرها وأغلب ظنى أنه ذاق لتشرده أحياناً لسعة الأسفلت فى «قره ميدان» .



وكان قبل أن أعرفه بقليل يحتل في الميدان ركن الرصيف المثلث المواجه لدكان التركي بائع الخلاوة الطحينية ، ويجلس وأمامه «مشنة» فيها فجل وجرجير وكرات ، ولا يزيد نداؤه عن قوله «الفجل ورور ، والجرجير العال» . لا ينطق وجهه بأثر ما يدل على هذه العهود التي تقلب فيها ، وهذه المهن التي ظلت تركله واحدة بعد أخرى ، فهؤلاء الناس يتقبلون الحياة كما هي ، لكل نهار قسمته ، وكل يوم ينقضى يموت - مثلهم - بلا تركة ، هم يدخلون الحلبة وقد مات إحساسهم : أمن الجهل مات أم من البلادة أم من القناعة والرضا ، فلا تطرف أعينهم للكلمات المنهالة عليهم ؟ ولكن يجدر بك ألا تسارع في الحكم عليه فقد تكون ظالماً له ، فإنك لو عرفته مثلي لوجدته رجلاً سطيماً الطوية أنيساً مهذب اللفظ كريماً .

ورغم ما يبذله من جهد ليتصيد لقمته ويقيم أوده فإن قلبه لا يعرف الحسد ولا الضغينة ، تنبئك عيناه اللتان خيمت عليهما السحابات أن في قلبه ميلاً دفيناً إلى الفكاهة والدعابة ، وتأسرك نظرتة لأن الابتسامة فيها تتملص من حجاب إثر حجاب ، فكأنك تشهد تصويراً سينمائياً بطيئاً لابتسامة العين وهي تولد ، وكان إذا رفع وجهه إلى ظلل عينيه بكفه ، فيخيل إلى أن العالم قد تضاعل إلى هذا الإطار الذي انفردنا فيه نحن الاثنين ، وأن حديثه مسارة خافتة في خلوة .

يحتل أبو خليل مكانه المعهود قبل الظهر بقليل ، فإذا جاء العصر ، حين تفرغ أو تكاد «مشنة» النهار ، قام وسار متأقلاً كعادته ، وأخذ يجول في الميدان ، وعمر على كثيرين من أصحاب الدكاكين ، ويمترث عند هذا أو عند ذاك ، فيسألونه عن حاله ، ويسألهم عن حالهم ، وبعضهم يتندر معه ويضحكه .

وكان له صديق يشتري منه رغيفاً يحشوه بالطعمية ويدسه تحت إبطه ،
وصديق آخر يشتري منه أرخص السجائر ويضعها في علبه من الصفيح
فوق حزامه بين جسده وثوبه ، ثم يترك أصدقاءه لرصيف المسجد ليتنسم
الهواء - كما يقول - ويتعرف على الوارد في ذلك اليوم . فإذا بلى جديد ما
يراه عاد إلى مكانه وجلس وبسمل وأكل غداءه ، حتى إذا فرغ منه قبل يده
ظهراً وبطناً وحمد الله ، وهياً لجسده جلسة مسترخية وأشعل سيجارة
يدخنها بلذّة كبيرة ، فهو صاحب مزاج . .

ثم يحتفى عن الميدان ولا يعود إلا قبيل الغروب ومد «مشنة» المساء .
أما عشاؤه فرغيف وقطعة الحلاوة الطحينية يشتريها من جاره البحرى ، ثم
يذوب من الميدان حين يخلو من المارة ، ولا أدرى أين ينام ، ولكنى سمعت
أنه يشارك امرأة عجوزاً مقعدة هتاء في حصيرة في حجرة صغيرة تحت حنية
سلم آخر زقاق في نهاية الدحديرة .

هل تزوج ؟ هل له أولاد ؟ هل له أقارب ؟ لست أدرى . إننى أحب
أبا خليل ، فلا أريد أن أتحدث هنا عما سمعته عن علاقته العجيبة
(ولابراهيم قلب شقيق) بتلك العجوز المقعدة المصنة ، ولا أريد أيضاً أن
أتحدث عن خيائنه لها بين الحين والحين إذا ما فتح الله عليه ، مالا وعافية ،
في تل قريب من السيدة ، فلا أعلم أن نفسى تعاف شيئاً كما تعاف
التحدث بسوء عن هذا الحى وأهله .

وذات يوم مشرق صاف ، أقبل أبو خليل على مكانه المعهود من
الرصيف فوجد الركن الآخر قد احتلته امرأة حولها ثلاثة صبية ، وعلى
صدرها رضيع كأنما يشرب من صدرها حرّاً فهو مغمض العينين نشوان لا

يفيق ، والطامة الكبرى أنها جلست أمام مشنة مملوءة بالفجل والجرجير والكرات . ولما بدأت تنادى «زرع العصارى يافجل ، الحزمة بلميم» ارتفع لها صوت مجلجل في الميدان .

يافتاح يا عليم ! وجلس أبو خليل لحظة وهو صامت يرقبها ، ثم تنهد وانصرف عنها ، وأخذ ينادى هو أيضاً على بضاعته ، وحاول أن يرفع صوته فوق صوتها فلم يستطع ، وأخذته نوبة من السعال ، أراد أن يكلمها ويسألها من أين أتت ، ولماذا وقع اختيارها على هذا المكان بعينه ، ولكنها لم تأبه له ، ولم ترد عليه . تبيع بيد ، وتفرق صبيانها بيد ، وتنقل بثني ركبها طفلها المخمور من ثدى إلى ثدى ، ثم تتحرك كالمقعدة نحو قلتها فيتعري فخذها قليلا . ولكن هيهات ! إن قلب أبي خليل ثائر لا يهش لها . لعلها إغارة مفاجئة ستنتشع غمتها في الصبلح .

ولكنه وجدها في الصباح التالي أيضا كالرصد أنماه ، وأخذ يتلفت إلى وجهها وإلى المارة وإلى جيرانه ، ويقوم ويقعد ، ويترك «مشنة» ويذهب يروى لأصدقائه هذا الخبر الداهم ، ثم يعود ، فإذا صوتها مجلجل في الميدان كأنما تنادى على معشرها في يوم الحشر العصيب .

واشتري أبو خليل في تلك الأيام بدل العشر خمس سجائر . انتهت حيلته وأنصرف همه إلى مراقبة هذه المرأة الجسور التي هجمت عليه تنافسه في رزقه . والغريب أنه بدأ يعجب بها ، وحاول أن يتسم لها مرة ، ومضت الأيام فاذا «مشنة» تقترب قليلا من «مشنة» بدر ، كأنما يريد أن يقول لها «لنشترك معا» ولكنه لم يقلها .

وأحست بدر ان المقام قد استقر بها ، وأن ابراهيم صفر اليدين من السلاح ، بل أدركت أنها أصبحت ذات سلطان عليه ، فتنازلت ذات يوم

وردت عليه ، ثم لم يمض طويل وقت حتى كانت إذا قامت لبعض حاجتها في الخرابة المجاورة للسبيل ، أوصته أن يجعل باله إلى أولادها . وطال غياب ابراهيم عن «مشته» وتسكعه عند أصدقائه ووقوفه على باب المسجد ، هب النسيم أولم يهب ، في قلبه أمل خفى . لعل بدرهى رزقه الذى أمطرته السماء ذات يوم على غير ميعاد ، وليس أحب إليه من أن يسلم قياده لهذه المرأة الجريئة ويعيش معها فى كنفها . إنها امرأة - كالرجل - يحق له أن يباهى بها الناس أجمعين . سيتودد إليها ، وسيضاحكها ليضحك معها ، وسيستظر حتى تقضم هى أولا من الرغيف لقمة أولقمتين ثم تعطيه إياه ليأكل من حيث رفعت فمها ، لعله يتذوق أيضا لعابها ، هى التى ستوقظه فى الصباح ، وتغطيه بالليل ، وإذا تخابث وغاب عند أصدقائه من أصحاب الدكاكين بحثت عنه وجرتة إلى حيث يجب أن يكون . هكذا كانت تحدّثه نفسه . ولكن هل يفتأها ؟ إنه لا يجسر على ذلك ، فهو لا يعلم عنها شيئا ، وليس فى الميدان من يعرفها .

وفى تلك الأيام اشترى أبو خليل غداءه من الطعمية نسيئة . ولما اقتربت «مشته» من «مشتها» حتى تلامستا ، حدثه بدر ذات مساء - دون أن يسألها - عن حياتها . فإذا بها أيضا من المشاكل التى كتب على ابراهيم أن تكون نصيب روحه وعينيه فى هذه الدنيا .

قالت له إنها حرة وغير طليقة ، متزوجة وتعيش كالأرامل ، فلها زوج غائب لا تدرى مكانه ، هو صعيدى يحمل على ظهره ربطة كبيرة من الفانلات والجوارب والقوط ، يدور بها على المقاهى . يلازمها زمنا ثم يختفى فجأة . وتسمع أنه سافر مرة إلى وجه قبل . ولا تدرى أهو يهرب منها أم من ثار قديم يخشاه أم له ثار يجرى وراءه ليسلم له شرفه . وقد مضى

على اختفائه آخر مرة قرابة سنة ونصف سنة وهي لا تعلم أحى هو أم ميت . والغالب أنه حى يرزق . وإلا لجاءها نبأ وفاته لأن على ذراعه وشها باسمه واسم بلده . أم تراهم سلبخوا جلده ؟ أقاتل هو فى السجن ، أم مقتول لا تعلم له قبراً ؟ اختفى وترك لها أولادها فخرجت تسعى إلى رزقها وقادها حسن حفظها إلى جوار رجل طيب مثل ابراهيم أبى خليل .

ومرت أيام أخرى فإذا بالآلة بينهما تزيد ، وأخذت بدر تحنو على ابراهيم ، وتشترى له طعامه ولا تطالبه بشئ ، لأنها خلطت مشته بمشتها ، ونقوده بنقودها ، والكل فى جيها ، وظنت أن حياتها قد انتهت إلى تلك الصورة ورضيت نفسها ذات يوم (ولا تسل أعن اختيار كان أم عن اضطرار ، فليس من اليسير أن تجد بدل الغائب صعيداً آخر . .) وقالت لابراهيم «لقد اتسخ ثوبك فتعال معى الليلة أغسله لك» .

وكان أبو خليل جالساً أمامها وظهره إلى الطريق ، وأخذ يحدثها وهو لا يشعر بمرور الناس ولا الزمن . . ترى هل ما يراه حقيقة أم من وهم عينيه ؟ خيل إليه أن شفتيها تختلجان فجأة ، ولعت أسنانها ، وتألقت عيناها ، لا السواد وحده ، بل البياض أيضاً . وسمرت نظرتها إلى ما وراءه فالتفت فوجد صعيداً قد حنت ظهره ربطة كبيرة ، يدب إليهما بخطى وثيدة ، نظرة واحدة يدرك أن القادم رجل خشن لا يرحم ولا يستسيغ الدعابة . وحط الرجل حمله وجلس القرفصاء ، ومسح عرقه ، وكان كل ما قاله لبدر :

- كيف الحال ؟

فأجابته :

- الأشياء رضا والحمد لله على سلامتكَ .

وأطرق الفتى الصعيدي قليلاً ثم أدار رأسه ووجه نظره واحدة إلى أبي خليل فاطمأن قلبه والتفت إلى زوجه يقول :

- لكل شيء أوان ، لكن الصبر طيب .

رقام برهومة ينفض التراب من على مقعدته ، وغاب عن بصرهما وابتلعت زحمة الميدان . .

ومرت أيام كثيرة ، لم أره فيها . قيل إنه أصيب بالحمى ، وقيل بل هي العجوز المقعدة قد علمت بخبر بدر فدرست في طعامه شيئاً انتظرت حتى بذلته لها شابة من جاراتها فلحقه منه أذى كبير .



غبت عن الميدان وأهله زمناً طويلاً ، ولما عدت ومررت على الرصيف المواجه للتركي بائع الحلاوة الطحينية لم أجد بدراً أم العيال ولا إبراهيم .
ثم حدث ذات يوم أن بكّرت في الخروج لبعض أعمالى ودخلت الميدان قبل أن تفتح المتاجر . وأخذت أسنانى تصطك من البرد إذ كنا في شهر وصفه بين الشهور القبطية : «قلت الشتاء طرية» . الحفاة يدرسون أصابعهم المتورمة تحت الإبط ، ويسرون كأنما تطاء أقدامهم العارية شوكاً . ينبعث في الميدان بين الحين والآخر سعال أجش غليظ . ثم يتلوه صمت . ثم يسمع بوضوح - وهو همس - نفث من حديث بين

أصوات لا يزال يثقلها النعاس وبلغم الصدر ، ورغم ما تقع عليه عين السائر من الغادين والرائحين فلا مفر له من الشعور بأنه في مدينة مهجورة لا تعرف هؤلاء المارة ولا يعرفونها .

وإذا بي فجأة أكاد أصطدم بابراهيم أبى خليل : ثيابه رثة ممزقة ، ورأسه عار ، وأقدامه حافية ، يسير كالترنح ، نظرتة المعتمه هي هي وابتسامته لم تتغير . خرج في تلك الساعة المبكرة ليؤدي وظيفته التي يجب أن تبدأ وتنتهى قبل أن تنتشر الحركة في الميدان . أصبحت له مهنة جديدة . هي البخور ، وهو عمل لا يتطلب إلا كفة ميزان قديمة ، وسلسلة غليظة وبعض نشارة الخشب وشيئا من فئات اللبان والشيح يضعها ، وكسر الخبز في مخللة تعلق بالكثف وربما ألقيت فيها أيضا الملاليم والعشريينات الخردة .

أدركت لحظة رأيته أن هذه هي المهنة التي ولد لها أبو خليل ، وكان يجب أن أتوقع أنه سيتهى إليها ، لأنها توافق طبعه ، فهي مهنة سهلة ينعم صاحبها بلذة التسكع ويتسل بالتطواف على أشكال وأنواع من الناس ، ثم إن دخلها ثابت - فهو من قبيل الاشتراكات ١ - وليس لها سعر معلوم ، ولا تخضع لرقابة ولا تبور فيها بضاعة إذا كسدت ، يعترف صاحبها أنه لا يرقى إلى مرتبة الباعة السريجة الذين يكسبون رزقهم من عرق جبينهم ، ولكنك لا تستطيع أن تتهمه بالشحاذة ، فما هو ذا أمامك خارج إلى عمله وعدة الشغل في يده . وإذا كانت هذه المهنة هي هكذا عند عامة أصحابها إلا أنها شيء آخر في نظر أبى خليل ، فهو قد ملّ التجارة بأنواعها ، لأنها شدة وجذب وخداع وحيلة ، وفصال لا ينتهى على المليم ، ولكن البخور لا يرتكز إلا على العواطف وحدها ، وهو يؤمن أن تحيته التي يستفتح بها

صاحب الدكان صباحه مجلبة للبركة لأنها صادرة من قلب صاف عطوف
مؤمن محب للخير . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع
الناس ..

لازمته بعد ذلك أياما كثيرة ورأيت بعيني الأسطى حسن الحلاق
لايرضى - فهو ليس بالأبله ! - أن يدفع إليه المليم إلا بعد أن يجره داخل
الدكان ليبخر له المقعد والمرآة والبطشت النحاسى الصغير المقطوعة حافته
بقدر رقة الزبون ، ورأيت صاحب المطعم الوطنى لاتقع يده إلا على
طعمية واحدة بقيت من أمس أو أول من أمس ، أما التركى فيعطية المليم
ويصرفه بحنق وضجر ، ولما ألفه أكثر أصحاب المتاجر أصبحوا يعطونه
المليم سواء تصاعد البخور أم لم يتصاعد ، فأهمل أبو خليل تجارته
وأصبحت مجمرته منطفئة معظم الصباح ، وإذا لاح فيها بصيص من النار
لم ينبعث منها إلا أسود كريحه الرائحة تتأذى منه الأنوف .

وذات يوم مشرق صاف ، أحسست وأنا أسير الى جانب ابراهيم أن
الميدان قد سكن فجأة كما تسكن الجو قبل الأعاصير ، وتوهم العين أن
السماء تنتفض كجناح خفاش ، ثم أقبل من شارع مراسينا رجل له عينان
براقتان كعيني الصقر ، ثوبه قد ضم سبعين رقعة ، وعلى رأسه عمامة
خضراء ، له خطوة مجدة نشيطة لاتعرف الإعياء ، قامته منتصبه ، ولسانه
لاينقطع عن تلاوة الأديعية والأوراد ، وفى يده مجمرة ينبعث منها دخان جميل
زكى الرائحة ، بل إن سلسلتها صفراء لامعة . . يافتاح يا علمين !

صد أصحاب الدكاكين هذا القادم صدى عتيفا أول يوم ، فهم زبائن
أبى خليل وليس من المعقول أن يشتروا فى الصباح الواحد

برمكتين قد تفسد إحداهما الأخرى . . ولكنه عاد في اليوم الثانى والثالث والرابع ، ثم تناول أول مليم . . ثم عاد ومر على كل دكان من جديد سواء رق له قلب صاحبه أم لم يرق . . وقد سحرنى ذأب هذا الرجل وقوة إرادته . فتركت صديقى الأعمش وسرت وراء هذا القادم العجيب فإذا به يخرجنى بخطوته المجدة الشيطنة من السيدة زينب ، إلى ميدان باب الخلق ، إلى القلعة ، إلى السيدة عائشة ، ويشق القرافة إلى السيدة نفيسة ، ثم إلى السيوفية والخيمية وبوابة المتولى ، ثم إذا به يأوى الى مقهى صغير فى سيدنا الحسين ، ويخلع عمامته الخضراء ، ويجلس ليدخن الجوزة ، وجلست إلى جواره وأنا ألهث وأتصبب عرقا . رأيت يسيّر ساعة من أجل الوصول إلى زيون واحد . . ولم ألق فى حياتى من يسعى الى رزقه بهمة هذا الرجل وصبره وجلده .

وترك برهومة مجمرته ، وأصبح يكتفى بالمرور وحده على أصحاب المتاجر عليهم يذكرونه ويعطونه المعلوم ، وتضاءل دخله ، واضطر إلى الوقوف وسط الميدان تارة ، وعلى باب الست تارة أخرى ، فإذا ببعض الزائرين يدسون فى يده ما تجود به نفوسهم ، إذ حسبوه شحاذا يتعفف عن السؤال ، والعجيب أن أبا خليل ربى له بعد قليل طائفة من الزبائن تخلص له ، وتبحث عنه ، حتى تعطيه ما فيه القسمة . . مسكين أبو خليل ! إنه لا يعرف الحياة ولا طبائع الناس . .

وذات يوم مشرق صاف ، وبرهومة فى مكانه المعهود ، إذ دَوَّتْ بالقرب منه صرخة عالية بالميدان كله : «حى ! قيوم !» وتجمع الناس حول المجذوب الذى صرعه الوجد ، ووقفت إحدى لابسات اللبس الأسود ، والمدا الأصفر وعقد الكهرمان الغليظ ، واندفعت تنزغرد ، واستفاق

المصروع ولكن فمه مطبق لا ينبس بينت شفة ، وعيناه المكحلتان المصابتان
بالحول تحمقان في وجوه المجتمعين حوله وقد أغرورت فيهما الدموع ، ثم
رفع كفين ملأتهما خواتم زرق وحمر ومسح وجهه وتنبها لجمع النقود . .
ولما سمع أبو خليل في الموعد عينه تلك الصرخة ذاتها في اليوم الثاني
والثالث ترك مكانه والتفت الى المسجد وهو يتمتم .

- يا أم العواجز ! مدد . .

كان قد ملَّ الحياة ، وركبه الإعياء والضعف ، وزادت سحابات عينيه
وانحنى ظهره . . واتجه بخطوات متثاقلة الى مقام أم العواجز ، حوله
صفوف من الشحاذين قد جلسوا القرفصاء - حتى تحالمهم هكذا
خلقوا - وأسندوا ظهورهم إلى جواره ، يحيطون به إحاطة القمل بقبة
الفقير هيهات أن يجد له مكانا بالدرجة الأولى بجوار الباب ، فتركه ودار
حول المسجد حتى وصل إلى الميضأة وجلس على بابها ، فالتفت إليه من
ينسقه في الأقدمية ووجه إليه نظرة نكراء ، فلا يكره الشحاذ الاشحاذاً
مثله .

وهناك تركت أبا خليل ونفضت منه اليدين ، فقد أصبح من أهل
دنiana ، في دنيا لا مخرج لها ، بل لها باب واحد للدخول كتب فوقه «باب
الوداع» .

(مجلة «الكاتب المصري» ، العدد ٢٠ ، مايو ١٩٤٧ ، ص ٦٨٣ - ٦٩٠)

مرآة بغير زجاج

كانت الشمس مشمرة عن ساعديها قد غمغمها العرق وهي منهكة في
صب لهيها على شارع بولاق في أحد أيام شهر أغسطس الماضي . لم ينج
مخلوق من عذابها :

بدت قطر الترام في مسيرها كأنها تلهث ، وفغرت القضبان فاما
متشنجة من شدة الظما ، ولو استطاع الطريق لتقلب ظهره لبطن وهو يتقل
في أتون لا يرحم ، في عيون خيول الجر المنهكة استجارة ، ولا مجير ! وفي
ضمير قلبها اختلط اليأس بالذل ، وأخذ الأشجار ربو خائق ، وتوقدت
الألوان كلها كأنما ينفخ عليها محموم ، وانقلب الهواء المرح الرقيق بطبعه إلى
صحراء جرداء ، بطنها السحيق كظهرها الملتهب ، تشقه الأنوف كأنها
معاول تنقب عبثا عن نسمة مخبوءة ، وكان الأرض قد طاح رأسها وفقدت
مستواها ، فهي قد هبطت درجة أو علت درجة ، نحولاً أو ورماً .

كل نبات وحيوان وجماد قد أسلم نفسه لربه - على مابه من اللغوب

والضنك والعذاب والاستجارة والمتململ - أطرقت كلها برؤوسها
وشملها جو من التسليم والإذعان ، كأنها تقول : من تمام الإيمان ترك
مشيئة الله تفعل بنا وبغيرنا ماشاء الله ، كلها أسلم وجهه الا الانسان ،
فإنه هو وحده الغشوم المتعالى ، فى هذا القيط لم يخل الشارع من المارة ،
ولئن كان بعضهم قد خرج فى طلب الرزق ، فإن أغلبهم قد خرجوا
يتسكعون ، حريق الشمس عندهم أهون من مرارة الضجر والسأم ،
وشعرت قلوبهم الجاحدة بأنهم موضع ريبة لا تخفى على أحد ، فهم
يتهربون من العيون ، تكاد أجسامهم تحك بالجدران ، بل ترى بعضهم
يتهرب من بعض ، فأنت إذا عاشرت من يقترب مثل جرمك الذى
تقترفه ، لم يقل احتقارك لطينتك ، بل يزيد ، جمع خليط من القيعات
والطرايش والعمائم والرؤوس العارية ، تنعقد وتنفك كالجراثيم تحت
المجهر . الهرب . . الهرب من دوايريتليك به شم عرقهم ، فرائحة زحام
الأبدان البشرية هى سيدة كل ما هو عفن متفن .

لأدرى لماذا استلقت نظرى هامة عارية من بينهم ، رأيته تسير على
غير هدى ، فهى تمشى قليلا ، ثم تنكص راجعة ، تنتقل من رصيف إلى
رصيف ، ثم تعود الى حيث كانت ، لغير سبب ظاهر ، لها وقفات تطول
وتقصر ، تارة منكسة ، وتارة مرفوعة ، وأخرى متلفتة حولها أو نحو
مواطئ الأقدام ، كأنها هى وحدها الطافية فوق تيار كل الرؤوس ، فلما
دنوت منها رأيت شعرا لاهو بالناعم ولا بالخشن ، لم ينبت بها على شكل
يلائمها ، بل كأنما هو حفة من عكارة صببت على هذا الرأس صبا ، ولما
رأيت الوجه تعلوه فترة وغبرة ، قد مسحت على تقاطيعه يد المحل تنفث
السموم الحارقة ، وتمص ينابيع الحياة شيئا فشيئا كدود العلق ، أشحت

بوجهي جزعا واشفاقا واستعدت بالله ، ثم عدت أبحث عنه ، أريد أن أقول له شيئا ، فإذا به يذلف إلى مدخل الممر التجارى ويغيب عن ناظري في زحمة .



ما هذه العين التي تلاحقني منذ وعيت ، مالى أجدها حتى في هذا اليوم القاطن ، وفي هذا الشارع الذى حسبت نفسى سأضيع فيه فلا يتبته الى أحد ؟ لقد خليت لها الدار وفررت من وجهها فإذا هى ورائى ، ماذا تريد منى ؟

فليتصور من شاء منكم أنه في ترام أو قطار أو جالس على مقهى ، فإذا بإنسان غريب يحدق فيه ، يثبت نظراته عليه ، لا يتحول عنه ، أى ضيق يملكه ؟ وأى تملل يكهرب أعصابه وكأن قوة خفية لا تقاوم تدفعه رويدا رويدا الى حافة هاوية سحيقة . إن النظارة المتفرجين في «السيرك» يحذرون أن يديموا النظر الى البهلوان في لعبته الخطرة ، لاجزعا من أنفسهم ، بل يخافون عليه من نظراتهم ، فهى كفيلة بأن تصرعه . . فماذا أفعل أنا ، وهذه العين تلاحقني في نهارى وليلى ، فى أكلى وشربى ، وإذا توهمت أننى غافلتها ونجوت منها ، شعرت بها وراء ظهري تترصدنى .

ولكل امرئ منا خزانة مقفلة يستودعها شيئا مجهولا لاندريه : أهى السريرة ؟ أهى الشخصية ؟ أهى نبراس الذهن ؟ (والسريرة والشخصية والذهن ، كلمات مخترعة لا تدل على شيء !) أم تراها هى الآمال الطوال

والعراض نخشى عليها سخرية الناس ، أو نستتر فيها القروح والعايات والمخازى ؟ ونحن نجلل هذه الخزانة بالحلل ، والثياب ، ونصد عنها الفضول بابتسامات مزورة ، أو بنظرات كاذبة ، أو بكلام نموه به عنها تمويها ، فى هذه الخزانة تمثل «لعبة استغماية» لانتتهى بين الفرد والجماعة ، إننا نخفى مفتاحها حتى عن أحلامنا ، وما نترسمه منها إن هو الا ظن وحس وتخمين ، أو تفسير كتفسير الأكمة للمراثيات ، أو مجرد قول كقول الشراح لنص فى علم الكلام ، ثم تنزل هذه الخزانة معنا- وهى مقفلة - الى قبورنا ، ماسر هذا الذى يحدث لو حاول محاول أن يبتك حجابها بنظرة نفاذة قد تفلح وقد لا تفلح ؟ وما شعور صاحبها ؟ هو نوع من الانهدام أو التمزق أو الانفجار العاصف ، أو الفرار والرجوع الفهقرى إلى المهبط والاحتواء بصدر الأم ، يحدث هذا إذا ماسقط عليها أول شعاع من الضوء .

لقد نزعنا هذه النظرة ملابسى وجلدى ولحمى ، وقففت عظامى ، وتركتنى أشلاء متناثرة فى لون الهواء وقوامه ، فماذا بقى منى ؟ كأتى بها مسلطة على لمحقى ، لكى يحل آخر محلى فى هذه الدنيا ، من جرائها ضاع على الزمن وذهبت قيمته ، وفسد اتصاله وترتيبه ، واختلط على أسنى وغدى ، وهذا الحاضر الذى أطلقنا بفضلله أن نماشى الكون ويماشينا أصبح كالساعة اذا تعطلت حركتها ، تشير إلى رقم لا تدرى أى كذبه بشاعة أم بلاهة . . . لقد فقدت من أجلها كل ما أملك ، بل أصبحت لا أستطيع أن أملك شيئا وأنا لا أملك نفسى .

كل انسان يمتطى صهوة حياته ليشق بها العباب ، أما أنا فالصوط فى يدى والمهماز فى قدمى ، وأنا مترجل فى الحلبة أتلفت حولى والجياذ تمر فى

مواكبها لاتنقطع ، تاركتي في رعب من أن أقع تحت سنابكها ، حتى الجياد
التي أراها تكبو وتعثر ، تبعث حسدى لراكييها فهم وإن لم تبعد بهم
نهايتهم ، إلا أنها خاتمة شوط ، طال أو قصر ، وبحسب أحدهم أنه كان
وصلا لما بين مبدأ أو نهاية ، وصل شيء بشيء ، فأصبح له ولهما معنى
مفهوم ، فهو حادث مخلوق جرت عليه أحكام البقاء والفناء ، ولكن ليس
أدعى لمسخية والهزء من منظر هذا المترجل ، وقد ارتدى ملابس الركوب
وهو يمشى وسط معمعة الخيل . .

كنت أصف نفسي كأننى أصف شخصا غريبا فأقول عنه : عمره
المملوك له حللا ، لا يتأتى له أن يقبضه الا نفاية أيام متزعة من الحياة ،
بالسرقة والاختلاس ، بالمكر والحيلة (كما تُلَقِّط الدجاجة اللصة حبة
الأذرة ، موهوبة من فورها للفناء ، مدفوعة إليه مقدما ، كرها لا كراما)
ومن ثم اختلف شعوره بالوجود عن سائر الناس : الموت عندهم عدو ثابت
مترصد وراء أكمة نكرة في الطريق المنحدر ، والحياة الغافلة هي التي تسعى
إليه ، بخطى عليها وهم الحرية ، ولولا أكلها الطريق لما أهلكتها
التخمة ، أما عنده فالحياة مسخ مقعد مشلول ، لا يريم عن مكانه ،
والموت هو الذى يزحف عليها ، رأى العين ، بخطى ثابتة أكيدة ، يدنو
منه شيئا فشيئا شبجه المتطاوول ، كأنه في إطباقه هب السموم . .

لقد بحثت عبثا عن النجاة - في المساجد ، بل فيها وفي المعابد لا يهمنى
أى دين أقيمت ، واتصلت بروحى بكل ما عبده الانسان قديما من

الاصنام .. واحتملت دعامتها المراد بها إرهاب الحمقى وقطع اللجاجة ،
فإن سحرها وحده كان مطلبى ، ثم قلت لأهبن قلبى للطبيعة وأسرارها ،
لعل أجد فيها يلبسا يشفىنى ، فسهرت تحت السماء أنطلع الى أفلاك
الكواكب ، وطال وقوفى أمام البحر والصحراء ، وجعلت نفسى تنساب
مع الوديان والأنهار ، ورقدت فى الغابات أتشمم أعشابها البرية ، وأترك
لكل ما هب وطار من الهوام أن تغدو وتروح كما تشاء من فوقى ومن
حولى .

تنقلت بين الخمر والتصوف ، وبحثت عن المشايخ الصالحين .. ولم
أترك قارىء بخت أو حاسب نجم، وألححت على كل من عرفته كى يدلنى
على قطب هذا الزمان .. فنظرت إلى وجه هذا القبطان التركى المتقاعد
الذى يرطن بالعربية ، وإلى هذا الأفندى بالنهار المتجلبب بالليل حوله
البكوات والباشوات يحدّثهم فيكثر عن كرامات قطه ، وإلى هذا السيد
الصموت المعمم ، يقترن اسمه باسم أحد الأمراء ، ويحكم مديرية
بأكملها .. وإلى هذا المهندس العالم الذى لا يريد أن يرى الكتاب المنزل ،
وقد مضت عليه القرون ، وتعده آلاف من قبله ، الا كصبي ضائع فى
زخمة الطريق ، فيلتقطه هودون سائر الناس ، ويحضنه ، ويطلق عليه ما
شاء من الأسماء ، ويلبسه ما شاء من الثياب ، ويأبى كل الإباء - أهى أنانية
الحب أم غاية الغرور ؟ - أن يسأله سؤالا واحدا من ماضى حياته .. هذا
رجل إن لم يكن عقيما قد خاب أمله فى أبنائه .. عرفت هؤلاء وغيرهم ،
فلم أجد عند أحد منهم طلبتى ، غرقت فى الموسيقى فطفوت ، كل تمثال أو
صورة لفنان لمعت أمام ناظرى لمعة خاطفة ثم انطفأت .. حتى الحب ،
جاءنى بعد لآى ، ومن حيث لا أحتسب ، ففررت منه فرار السليم من

الأجرب ، إذ كنت لا أملك نفسى ، وتعجز روحي عن تصور الدوام كما
تتصور الفناء ، وكل ما يعين على البقاء هو عندى عبء ثقيل ، كلما تعلقت
عيني بشيء ونظرت إليه فى هوس ، لا تنفك تبحث عن هذا المجهول الذى
يسمّرها تارة ويزيغ بها تارة أخرى . .

وما هزنى إلا أذان الفجر فى بعض الليالى ، ثم لم أتقدم بعده خطوة ،
لا أريد أن أجعله الدليل على أننى لا أزال أحياء ، وأنى لا أزال أشعر ، بل
أجعله مقياسا لكل ما فقدته من جميل ، فما يزيدنى إلا لوعة وحسرة ، لقد
زرت مستشفيات السل فى مراحلها الأخيرة ، ومضى على زمن خالطت فيه
المجانين ، وتصيدت زمانا نفايات البشر لعلى أجد فى قلوبهم الممزقة مرآة
أرى فيها وجهى !

٤

كأنى بصاحبنا قد أزمع السفر ، أم تراه لا يزال يتسكع ؟ ها هو يقف
فى الممر التجارى أمام متجر للحقائب يتأملها ، ويتحسس - كالأعمش -
واحدة بعد أخرى ، وصاحب المتجر مشغول عنه فى بعض شأنه ، فمن بين
مائة متفرج يفوز بمشتر واحد ، واختار صاحبنا حقبة والتفت الى البائع
يقول له :

- بكم هذه ؟

التفت إليه البائع وألقى عليه نظرة سريعة ثم انصرف عنه ولم يجبه .
بعد قليل كرر صاحبنا على البائع سؤاله :
- أسألك ، كم ثمن هذه الحقبة ؟

وتملأ صاحبنا وقد أخذته الحيرة والقلق ، أبلغ به الحال أن يتوهم أنه يتكلم وهو لم ينبس بحرف ؟ أم صوته غير مسموع ؟ بل - فليقلها صريحة ! أهو شيء غير موجود ؟ ثم عاد يقول لنفسه : «إنها أوهام . ولكن لماذا - على الأقل - لا يعامله الناس كما يعاملون سائر الناس ؟ ولماذا لا يحفلون به في أغلب الأوقات ؟ فهذا البائع لا يرد عليه هو أيضا .

ومن عاداته في مثل هذه المواقف أن يتقبل الهزيمة وينصرف ، ولكنه تشجع هذه المرة - ولا يدرى لماذا - والتفت الى البائع محتدا يقول :

- ألا تسمعي ؟ أنا أكلمك . أسألك بكم تباع هذه الحقيبة ؟ وما كان أشد دهشته وعجبه حين رأى البائع يقبل عليه كأنه يعرفه منذ زمن بعيد ، ويقول له ضاحكا :

- انصرف ! انصرف ! ليس هذا وقت مزاح . .
رباه ! ما معنى هذا كله ؟ لم تخصني بهذا العذاب كله ؟
شق أكوام الحقائق واقترب من البائع يكاد يصرخ في وجهه :
- ما معنى هذا ؟ كررت عليك سؤالا واحدا ثلاث مرات وأنت لا تجيبني !

نظر اليه البائع مدققا ، ثم ضرب جبهته ببطن راحته كأنما استفاق من حلم أو رأى أعجوبة ، وتأمله مرة أخرى برهة طويلة ثم قال :

- ألسن فؤاد فهمي ؟
ولما رآه صامتا مقطبا استطرد يقول :

- حسبتك إياه ، وهو صديق لي ، ولي العذر ، فانت تشبهه . . إن العين الفاحصة لا تستطيع أن تفرق بينكما ، ومن دأب صديقي هذا أن

يمزح بي ويعابثني ، فلهذا فعلت معك ما فعلت ، لا تؤاخذني .. ماذا تطلب ؟ أنا تحت أمرك .

سأله ضاحكا متلعثما :

- ومن يكون فؤاد فهمي هذا ؟

- أراك لا تعرفه ، هو مصور فوتوغرافي في شارع الفجالة .

ثم تحول عنه وهو يقول كأنما يحدث نفسه .

- كم في هذه الدنيا من غرائب ، من يظن أن اثنين من الناس يبلغ

التشابه بينهما هذا المبلغ ؟ هذه أول مرة في حياتي أصادف هذا الشبه

المطابق .

والتفت ، فإذا صاحبنا قد غاب عن بصره ، فرمسرا ، تنفض بدنه

وعشة ، وتغلى في جمجمته أفكار عجيبة متلاحقة يأبى تصديقها ، ولكن

هذا الخبر المفاجيء يسلكها جميعا في نظام واحد ، فإذا هي تبدو كالبديهييات

التي تظل مبهمة دهرًا طويلا ، فإذا أسفرت ووضحت لم يكن ما تبعته من

رضا الاطمئنان لها بأقل من الدهشة للذي كان من الغفلة عنها فيما مضى .

١٥

لقد عرفت !! إذن فهناك آخر في هذه الدنيا - حتى يسمى - له ولى

صورة واحدة ، فلمن منا تكون الصورة ؟ لى أم له ؟ كل شيء يقبل

القسمة إلا هذه الصورة التي برأنا الله عليها لتمييزنا وحدها عن الخلق

كله ، وترسم شخصيتنا وحياتنا ومآلنا ، بل هي وحدها كل وجودنا ، ولو

بكرر ال (أنا) لما بقى أجد ، ولعادت ذرات الموجودات تندمج في المحيط

المجهول الذى فصلت عنه ، كما تعود قطرات المطر الى أبيها البحر ، فما تفسير هذه المشكلة التى وقعت فيها ؟ هل جاء جسدان إلى هذا العالم فى وقت واحد - وأنا أظن لشدة الشبه بيننا أن سنى كسئه - ثم جاءت الروح المختارة لجسد معين ، على صورة معينة ، فحاربت بين هذا الازدواج فى الشبه ، فتوزعت بينى وبينه ، بل إلى أومن الآن أن القسمة لم تكن عادلة ، وأبنتى خرجت منها بقسط ضئيل ، وفاز الآخر بأكبر نصيب .

كلا ! كلا ! بل لم لا أقول إن روحى ضلت طريقها إلى وسلكت سبيلها إلى جسده ، فأصبح يعيش وله روحان ، وأنا أعيش مفقود الروح . وإذن فهذه هى العين التى أجدها تترصدنى وتلاحقنى منذ وعيت ، لقد وضع الآن سر هذا المجهول الذى كان يجذبني إليه ، وأنا لا أدزى الى أين أسير ، هذا سر ما أشعر به ، وهذا تفسير ضعف يدي عن الامتلاك ، وعجز روحى عن اليقظة ، بل هذه علة انزلاق المعتقدات والمشاعر المكتسبة على روحى ، كما يتزلق الماء على الصخر الأملس .

هناك إذن وجه سوف أرى فيه - فى النهاية - وجهى ، كأنه يبدو لى فى مرآة بغير زجاج ، وقد ظللت طول عمرى أتجنبه وأنفر منه ، ولا أصدق به ، لعلمى أنه ليس لى . ما جلست قط إلى حلاق إلا متمللاً من مرآته ، أغض الطرف دونها ، وفى المرات القليلة التى أخذت لى فيها صورة فوتوغرافية ، كنت أجزم - حين يدفعها إلى المصور - أنه خلط بينى وبين زبون آخر فأنكرها وأصر على أنها ليست لى ، ولا تستقر معرفتى بها إلا بعد لأى وطول تأمل ، لا مؤمناً بها ، بل أحدث نفسى :

« هكذا يراى الناس والعدسة ، أما أنا فشئ آخر . »

وما من مرة وقفت فيها عند الخياط بين المرايا الثلاث ، إلا تأملت
طويلا هذا الشبح يبدو عن يمين وعن يسار ومن خلف ، فلا أصدق أنى أنا
هو ، ثم أكف عن النداء والمعارضة ، تاركا للخياط والمرأة أوهامهما . .
إذن فسأرى يوما ما مغتصب روحى . . سأرى وجهى !

٦

لم يبق لصاحبنا هم إلا أن يقابل هذا المجهول المترصد له ، والغريب
أن اضطرابه عند انصرافه من دكان الحقائق لم يُعمر طويلا وورثه هدوء
يشبه السكون المنذر بالعواصف .

سار فى شارع الفجالة من أوله ، متلفتا الى جانبيه ، وبعد قليل رأى
لافتة سوداء حال لونها تسدلى من نافذة الطابق الأعلى من منزل قديم
متداع ، وقد كُتب عليها «فؤاد فهمى ، مصور فوتوغرافى» .

وكان صاحبنا يخشى ، إذا ما وصل إلى الحى الذى يعيش فيه غريمه أن
يختلط أمره على أهل هذا الحى ، فيحسبوه جارهم ويحدثوه ، فلا يستطيع
جوابا ، ويصبح الشبه موضع ملاحظة وداعى تندر .

وتلبث برهة - شأن المقدم على أمر ذى خطر - ثم انطلق إلى باب
الدار ، فوجد أمامه سلما خشبيا قديما أثريا ، فعلا درجاته مسرعا يكاد
ينكفىء ، حتى بلغ الدور الأعلى ، ووقف لحظة يسترجع نظام نفسه ،
ورأى باب الشقة مفتوحا فدخلها ، فلم يجد فى غرفة الانتظار أحدا ،

تلفتت إليه من على الجدران صفوف من العيون ، كرسوم مقابر الفراعنة ،
تسأله : من أنت ؟

سمع صوتا ، خيل إليه معه أنه يكلم نفسه بالتليفون ، يقول له :
- استرح عندك قليلا إن شئت ، وإن شئت فتعال إلى هنا ، ففى يدي
شغل . .

اتجه نحو الصوت ، فوجد نفسة فى دهليز مظلم فى وسطه ستارة متدلّية
تخجب حجرة التحميص ، فأزاحها بيده ، ووقف وراءها صامتا ، ولمح فى
الظلام شبعا يتطلع فى لوح زجاجى تحت ضوء أحمر . . يا لله أما أرى
وجهى أول ما أراه إلا فى الظلام ؟
سأله الصوت نفسه :

- أبونيه أم كرت بوستال ؟ اتبعنى فقد فرغت من عملى . .
ومشى أمامه إلى حجرة الانتظار وجلس أمام مكتبه ، وتناول بقية
سيجار صلب غليظ ، اسوداده الفج القبيح على نقيض وقار لون الرماد
المتماسك عند طرفه ، ووضع السيجار فى فمه ، لا يعنى بطرح الرماد ،
ورفع بصره إلى زائره يقول له :

- ماذا تريد ؟

لم تبد فى نظره أقل دهشة ، كل هم أن يقيس طوله وعرضه ، وينظر
وضع رأسه كيف يكون أمام العدسة . .

وضع صاحبنا كفيه فوق المكتب وانحنى حتى أصبح وجهه مقابل وجه
المصور ، وحدق فيه طويلا ، ثم قال له فى صوت خافت متمهل :

- ألا تعرفنى ؟ ألا تنتظرنى ؟

فأجابه بضحكة عالية :

- هو أنت ؟! لقد حدثنى عنك صديقى بائع الحقايب فى المر
التجارى ، وبينى وبينه مزاح لا ينقطع ، لقد ضحكت لخبره طويلا ولا
أزال أضحك .. ما كنت أحسب أنك ستهم بى أو تأتى لتزورى ، فالحمد
لله إذ فعلت ، أنا والله سعيد بمعرفتكَ ، وأغلب الظن أن تنشأ بيننا صداقة
متينة .

فقال : قف أمامى ، هذه والله أبدع المفارقات التى تضحك الشكالى
وأخذ فؤاد يقهقه ملء شديقه ، ويجوب الحجرة يضرب كفا بكف وهو
يكاد يَخْتَنق من شدة الضحك .

ولما رأى صاحبنا يقف أمامه متجههم الوجه مقطبه ، التفت إليه
يقول :

- ممالك تحمل هموم الدنيا كلها على رأسك ؟ ماذا بك ؟
فأجابه :

- إن شئت أن تقوم الصداقة بيننا فاقبل أن يكون لقاءنا دائما على
انفراد ، فإننى أود أولا أن أعرفك وآلفك .

فأجابه : لك على ذلك ، فلنستفتح الصداقة بكأس من العرق
الرحلاوى ، فهذا أفضل مشروب فى فصل الصيف ، أم تُراك لا تشرب
إلا الويسكى كالأعيان أو الشبان الواقعين فى يلاء التقليد ..
ومضى شهر ..

أى مخلوق هذا ؟ إنه رجل يأكل أكل اثنين ويشرب من الخمر شرب ثلاثة !! وأين منه «دون جوان» ؟ له فى كل يوم خليلة أو خليل . لا يهمنه من أى إناء شرب ، والعجيب أن كل خليلة منصرفة تصبح قوادة له ، فتأتى له هى ذاتها بخليلة جديدة ، وهكذا دواليك .

إنه لا ينام إلا غراراً . . ولا يكف عن الحركة والضحك والمزاح والغناء ، لم أره قط يحمل هم أم مريضة أو أخ طالح ، أو صديق تعسر . .

ماخبره ؟ إنه حين يفتح النافذة فى الصباح ويستنشق الهواء بصدرة العريض ، أحسبه سيبلغ الدنيا كلها بما فيها ، بل إنه لا يعيش حياته وحدها ، فهو يضيف إليها هامشاً كبيراً قد يساويها طولاً وعرضاً ، يلتسمه فى القمار ، وهو بعد حر طليق لا يستعبده هذا الطاغية الذى لا يصفاحه أحد إلا أصبح من أرقائه . . هو يراهن على الخيل ، ويشتري ورق اليانصيب ، ويلعب الموكر ، والبكاراه ، والشمان دى فير ، والروليت . . حيثما وجدها ، بل رأيت يترث ساعات طويلة فى الأزقة وحدائق الملاهى أمام ألعاب القمار التى يعرضها أصحابها على الأغرار والمتسكعين من لا بسى الجلايب والصبيان . .

وقد بلغ به الهوس أنه لا يمر أمام بائع كثافة بالقمار على عربة يد إلا وقف عنده ، ودفع القرش ، وأدار الذراع ليرى على أى رقم يقف ، وكم إصبع من الكثافة يفور به . . وقد لا يأكلها . . لا يزهى بمكسب ولا يابه

لخسارة ، كأنما النقود في يده عجلة دائرة لا يعرف أولها من آخرها .

وقد أصبحت أشك في أمره ، إذ لا أظن أن مكسبه من صنعته يكفيه لكل ما يفعل ، ورأبني منه أخلاط من الناس يترددون على مسكنه ، ويدور بينهم همس طويل ، وتتبادل الأيدي أوراقا مطوية ، وأغلب الظن أنه يشارك في تزييف أوراق النقد .

ماطيتته ؟ لم أره يقرأ كتاباً أو صحيفة ، ولكن له نظرة نفاذه وكلمة ساحرة ، لا يلبث القادم عليه حتى يقع بين يديه ، وينكشف له خبره بخبره وشره ، وهو في أوقات نشوته وساعات تعجبه ، يكرر كلمة واحدة ، ينطق بها كالخطيب ملوحاً بيديه ، وهو يذرع الحجرة جيئة وذهاباً !

«دنيا ! دنيا !» وما أحسب كلمة «الأخرة» جرت قط على لسانه .

ما جيلته ؟ يقسم لي أنني أصبحت صديقه العزيز ، ولكني لا أشك أنني لو هلك اليوم لما تحركت شعرة في رأسه ، ولا لتحتم من فوره بين يديه ذلك الخرق الذي يحدته موتى في نسيج حياته . .

ولكن ما أشد غفلتي ! لم أقول : ماسره ؟ ما خبره ؟ ماطيتته ؟ ما جبلته ؟ والسر مفهوم والسبب واضح وضوح الشمس ، إنه يأكل حياتي أكلا ، وهذا هو سر قوته وسر إغمائي ، وقد أنطقه الحق ذات يوم إذ قال لي وهو يزجرني على انطوائى !

- تأمل نفسك وتأملنى . . فلأننى منذ عرفتك قد زاد وزنى وزاد نحولك ، فاحترس وإلا بلغتك وفنيت في . .

ومضى أسبوع . .

لم أنم إلا غراراً ، إن انجذابي لهذا الرجل الغريب لا يصارعه إلا نفورى منه . وإذا الاعجاب بشخص أو بشيء اتصل في القمة بأقصى الحق عليه ، والرغبة الملحة في هدمه لفرط كماله ، وإن كثرة الناس لتعمل جاهدة في إحداث المساواة - من حيث القيم الذهنية والأخلاقية - بين البشر كافة ، حتى لا يكون هناك عال ومنخفض ، ورفيع ودنى ، هذا مبعث الثورات الجارحة والمعاول الهدامة ، والتشنيع والإساءة والانتقاص ، كلها تنبثق من القلوب كأنفجار القوى الطبيعية ، لا سبيل إلى درئها أو مقاومتها ، ولا شيء يفقد السهل اتزانه وهدوءه كرؤيه رأس جبل شاهق ، فكيف بى وأنا أرى هذا الرجل يحتل مكانى ، وأرى كل حجر يضعه في بناء حياته وغرائزه ، ينقص منى ، فكلما علا زادنى هبوطاً .

وقد بلغ من توقد غيظى عليه أن لو عرض على أن نندمج في الخلق معا ، كما نحن مندجمان في الخلقة بالشبه ، ثم ننقسم بعد ذلك نصفين متساويين لما قبلت ، لا شيء يرضينى ، بل لا شيء يشقينى إلا هدمه بكلمة واحدة لا رجعة فيها .

إن كل القوانين تعترف بحق الدفاع عن النفس ، وأنا إنما أدافع عن روحى ووجودى وكيانى . فلى كل الحق فى أن أزيله من طريقى وأسترد حياتى وأنا أعلم أن الفرصة ستواتينى يوماً ما ، دون أن يلحقنى أقل أذى . . ولذلك سأظل متربصاً به ، كما عاش طول حياته متربصاً بى .

وشاءت الأقدار أن تهيم خاتمة هذه المأساة التي شهدت مولدها في شارع بولاق في يوم قاتظ من شهر أغسطس الماضي ، وكان الصيف قد ولى وأعقبه الخريف ، وهورييع بلادنا ، انقضت نشوة النيل في ضمته لمصر من فرعها إلى قدمها ، وتخلت ذراعاه عن الحياض ، ورقد مستكيناً في مجراه ، وكانت السماء صلعاء في الصيف فأخذت تقزين بثيابها الحمر عند كل غروب شمس ، وانقلب الطين الرايب إلى بساط سندسى ، ما أحلى مذاقه بين أضراس الجاموس النحيل ، إنه يعيد الحركة إلى فكيتها المتراوحين بعد أن صعدنا على خشونة الكسب . ما أحلى الاطمئنان الذي يبعثه في ريفنا منظر الجاموسة وهي راقدة في حقل البرسيم ضابرة خاشعة . . ما أظهر براءة خشمها وأذنيها الورديتين ، وأصبحت كل نخلة نافورة من البهجة والدلال ، مع بقائها علامة التوحيد في بلادنا . . للأرض فرحة علوية تنهز أعطافها ، وللسماء تدان إليها فهي حانية عليها بحواش مزخرفة من طنب السحاب : هذه وليمة سيد مضياف يقيم خوانه على قارعة الطريق ، يدعو كل من مر لشاركه في أنسه ، لا يفرز البشيم من الجائع ، ولا يفرق بين السعيد والشقى .

وصاحبنا تائه في غمرات سود تتلوى فيها الأفاعي ويسطع منها بخار متن كأنه نار محرقة ، هي جرثومة كافة الأدواء والعلل وأصل كل بلاء ، لم يسعفه إلا ميكروب لا يراه المجهر ولا يمسه أبخل المرشحات ، نفذ - وما يدرى أحد كيف نفذ - إلى جسد فؤاد فهمي فالقى به في الفراش محموماً

فلما رآه صاحبنا مساء ذلك اليوم أدرك أن غريمه قد قطع إليه نصف الطريق وهو لا يدرى . وجده ملقى على فراشه في حجرة نومه ، في الشقة ذاتها ، ليس بجانبه أحد ، هذا هو مريض الجبابرة ! تأكله الحمى وعيناه متيفقتان ، كأنما يؤجج فيه المرض كل نهم للحياة ، فما كاد فؤاد يرى صاحبنا حتى أخذ يسخر به ويهاجمه :

- لوبك كان هذا المرض لا استدعيت كل الأطباء ، والأصدقاء ، وكوّمت حولك الأدوية من كل لون ، ولو تجسّم لك المرض شخصاً لأشفقت عليه ، ونكصت عن مقارعتة ، إنك تعجز عن عرك برغوث !!
أما أنا فلا أتعاطى إلا الدواء المنوّم ، وسأغلب على المرض وحدي .
ويقوق .

رباه ! كيف يموت هذا الرجل ؟

نظر إليه صاحبنا طويلاً ، وهز رأسه ثم ابتسم له كأنما يقول :
- صبراً صبراً ، الآن وقعت في يدي وسنحت الفرصة ، ولن أدعها
تفر !

أخذ يشعر أنه قد بدأ يسترد سلطانته ، وتدب الحياة في جسده ، وأنه قادر على أن يحرك غريمه كما يشاء ، فلم يندهش حين التفت إليه فؤاد وقال له :

- دعني الآن فأنا أريد أن أخلو بنفسى ، ولكن أرجوك - قبل انصرافك - أن تذهب إلى المطبخ وتصب لي قليلاً من الماء في كوب تُقطر فيه عشر نقط من هذه الزجاجة .

سار في الدهليز ، وفي قلبه هزيع الأغاني وترجيع الأناشيد . .
ثم عاد وناول الكوب ، وظل واقفاً حتى شربه إلى نهايته .
نزل على الدرج خطوة خطوة ، معتدل القامة ، مرفوع الهامة ،
مبسوط الصدر ، على شفثيه ابتسامة جذابة ! . .

(مجلة «الكتاب» ، يوليو ١٩٥٠ ، ص ص ٦٢٠ - ٦٣١)

احتجاج

١

- ثمانين قرش ، ثمانين قرش ، ما لهم ؟ كويسين !

- مش كان يابنية متأجر بجنيه ؟

- يابنى راخر فضل فاضى شهر وزيادة ماحدش هوب عليه ..

- نصبر شوية ..

- يابنى يا محمود ، احببى النهارده وموتنى بكره .

ونفذت إرادة الست خيرية - كالعادة - ونزل محمود أفندى ومزق بنفسه «دكان للايجار» كان كتبها بخط يده على ورقة كراس وألصقها بالباب ، ثم سلّم المفتاح للأسطى حسن المنجد .. شاب يلبس جلبابا أبيض فوقه «زاكته» ، وجهه أصفر ، وطربوشه مائل إلى ناحية .

وقف محمود يراقبه وهو يفتح الدكان ، ثم نظر لساعته ، الساعة السابعة ، ونظر للباب ، وصل لسمعه وقع أقدام تنزل من الدور الأعلى ، هذا هو ميعاد خروج حلمى أفندى زوج أخته زينات ..

وخرج حلمى من الباب وهو يزور صديريته ، له نظارة غليظة فى إطار
ذهبى تبدو من ورائها غيناه فى أقل من حجم الترمسة .. هو فى كل يوم
مسرع ، ولكنه فى هذا الصباح تريث لحظة ليسأل من المستأجر الجديد ،
ودخل الدكان وراء الأسطى حسن يقول :

- لما تفضى يا معلم عندنا شغلة بسيطة .

- من عيى ..

وهروا حلمى أفندى والمظلة تهتز على ذراعه .. يراقبه محمود وهو
يضحك فى سره متعجباً .. ليس ضحكه من رغبة حلمى فى استغلال
الأسطى حسن مجاناً ، بل من تسرعه وقلة صبره ، كأن الأسطى حسن من
مستأجرى أملاك حضرته ..

فليستدوق - على الأقل - ويتنظر ، لعل أصحاب البيت أنفسهم فى
حاجة قبله للأسطى حسن .

نظرة أخرى للساعة .. الساعة السابعة والرابع دق محمود الباب
ونادى :

- ياسى فرج ، ياسى فرج ..

هذا زوج أخته الثانية نعمات ، كلاهما موظف فى وزارة الأشغال ،
يهما يخرجان كل صباح معا ، نزل إليه شاب يلبس حذاء برقبة ، وصديريه
ضياء على حلة كحلية .. له كرش تقيسه سلسلة ذهبية طويلة .. هادىء
الخطوة ، بطيء الحركة ..



سار الابن مع زوج البنت جنباً لجنب . . لم يبق في المنزل سوى الحرير و «زربة» عيال ، أولاد وبنات ، لهم ضوضاء وضجة وزعيق . . كلهم في سن متقارب ، ولباس متشابه ، إخوة وأخوات وأولاد خالات وعمات . . تتردد في هذا المنزل نداءات بأغلب أنواع القرابة والنسب . . هو منزل صغير لا شيء يميزه عن جيرانه ، لا يخطر ببال من يمر أمامه أنه يلزأ مثل رائع لتجدد الحياة وتغاقب السلالات . . هو منزل متبجح ، عياله كثيرة متلاحقة ، أكبر هم أصحابه بالنهار ، وشغلهم الشاغل ، ومدار حديثهم : الأكل والشرب ، لا ينقطع تراحمهم على المرحاض ، يختلط صوت نجشؤهم وفواقهم وخراشهم برائحة فساتيمهم . . أما بالليل ، عندما يغلق بابه وتقفل نوافذه فيهبط عليه سر من أسرار الوجود : سر غريب ، حسابه مئات الألوف والملايين ، لا بالاحاد والعشرات ، لا يقود حتى يمين ، بل يسوق ويظل مجهولاً ، لا يترث ، لا يلتفت للوراء ، لا تنقز نفسه وقدماه لا تطان إلا على أشلاء ، لا يستفيق لهذا السر إلا من عاشر النجل وأطل إليه في إبان نشاطه وزحامه القاتل داخل الخلية . . في الصيف الماضي ولدت زينات ، وفي الشتاء الذي يليه ولدت نعمات بنتين في بطن ، ويتردد الآن في المنزل بالليل والنهار عويل قىء فائقة ، زوج محمود ، فهي حبلى . . يقارب الحيوان لو خلى لنفسه بين موسم توالده وموسم اخضرار الأرض : الانتعاش واحد والعيد للجميع ، ولكن الإنسان يلد في رهبرير الشتاء وحمارة القيظ وما بين الفصلين ، قد يقال إنه أضعاف هجة اللقاء مع الأرض حين تبعث من جديد في أجل زينه ، ولكن لا بأس ، إنه وحده سيد الأرضي ، والسيد لا يأبه لأهواء عبيده . .

والست خيرية في هذا المنزل بمثابة الملكة في الخلية ، لا لأنها لولا بطنها

وحجرها لما قامت له قائمة ، بل لأنها روحه ومدبرته ، هي - كما يقول جيرانها - عمود البيت .

والست خيرية من أهالى القاهرة ، تزوجت مبكرة من ناظر زراعة مطربش ، عرفها سكنى الأرياف ، ومنازل حقيرة متهدمة ، ومعيشة الفلاح تزامن فيها الجاموسة أصحاب البيت ، رأت معه في حياته المتنقلة بلأذا عديدة ، إلى الآن لم تنس أساءها وترتيبها لأنها خلّفت جزءا من حشاشتها في قرافة كل بلد ، ابن فوق رأس ابن ، عاش من حرسه الله ، ومات من انتهى أجله ، حتى السقط له اسم وذكرى . كم تعبت ! ولكنها صبرت مع زوجها ووفرت له قرشا على قرش وجنيها على جنيه إلى أن اشترى من أحد الوارثين خمسة أفدنة ضعيفة في عزبة خورشيد ، والمنزل الذى أقام فيه بالبعالة حينما عاد إلى القاهرة يشتغل في إحدى الدوائر ، ثم مات ، وخلفها على يديها أولاد صغار ، ليست هي التى تتزوج من رجل يطمع في حطامها ويشتت من حولها عيالها : رفرت عليهم كالدجاجة تحتضن كتاكيتها تحت جناحها إذا هبط الظلام . . ربتهم بأسنانها كما تطبق القطعة فكيتها - يالها من عضه فيها الرفق والرحمة والحنان ! - على جلد رقبة صغارها وتنقلهم من المخافة إلى الأمن . تربية ليس فيها تدليل ولا حق والى ، ولا عطف مضر . لا يزال بناتها يذكرون للآن كيف كانت تسرح لمن شعورهن ، يد قوية تقبض على الضفيرة وتشد الرأس للوراء ، لها لكمة ترن على الظهر إذا زنت أو تململت . .

ويذكر محمود إلى اليوم قبضة هذه اليد على قفاه يوم الحمام . . قبضة تشل حركة رأسه ولا ترتفع ولو صرخ من رغبة الصابون تغشى عينيه وهو يحميهما بقيمصه المتسخ ، يخلعه ويبقيه في يديه مبللا .

تذهب للبلد وتلم الإيجار بالمعروف والمتلوف وتأتى بزكائب القمع
وتعجنه وتلدن الخبز ، وتستعين بإيجار الدكان على مصروف الخضرى
والجزار . . لم يقل أحد عنها إنها بخيلة أو مقترّة ، بل يقال عنها - على
العكس - إنها سيدة عاقلة ، أينما وضعت يدها حلت البركة ، من أمثالها
العديدة التى يتناقلها عنها معارفها : «لا ترفص النعمة حتى لا ترفصك» -
«كب الطبخ البابت ورمى اللقم قلة بركة» - «القرش الأبيض ينفع فى
اليوم الأسود» - «الى ياكل على ضرره ينفع نفسه» - معتقدات ليست
وليدة المناقشة والبحث والتجربة ، بل هى جزء من ديانة الست خيرية ،
تؤمن بأنها من وحي حكمة إلهية ، لا جواب عليها إلا الإذعان والانصياع
التام .

وتمكنت الست خيرية بفضل هذه المبادئ من الاستمرار فى تعليم
محمود إلى أن نال البكالوريا ووظفته ، وزوجت بتيها من رجال من
طبقتها ، أمال رأيهم السكنى مجانا ، ثم زوجت ابنها محمود ودفعت مهره
من قافض مرتبه ، الكل يسكن معها ، والكل تحت أمرها ، إن تلكا واحد
منهم رده إلى الطريق المستقيم بمثل بارع . . فهى مشهورة بأنها خزانة
أمثال ، معها لكل مناسبة مثل ، هذا بعض ما يجيبها إلى جيرانها ويجعل
حديثها حلوا شهيا ، ولكن لا يعلم أحد متى وأين ولا كيف جمعت هذه
الأمثال كلها وحفظتها ، لا تحطىء موقعها من الكلام ، وإذا طلبت مثلا
جاءها جريا طيعا . .

الأسطى حسن لم يكذب الخبز ، وطلع فى صبيحه اليوم التالى إلى

الدور الأعلى ، تنحنح على السلم ، ولم ينتظر ، ثم خرجت إليه الست خيرية وعلى رأسها طرحتها البيضاء ، مد لها يده ، فسلمت عليه بيد تغطيها بطرف طرحتها ، فهي من مذهب أن الملامسة بين المحارم تنقض الوضوء ، ووقف الأسطى حسن أمامها خافض النظرة (ولد طيب مؤدب ا) . ولكن هذا الاعتقاد لم يمنع الست خيرية من أن تنادى خادمتها بمبة وتهمس لها وترسلها ورائه لتقف على يده إلى أن ينتهى من تصليح المقعد الطويل . . في الحجرة كُتب وكراسى ، ولكن بمبة جاءت للباب وجلست القرفصاء ، لها بين الحين والآخر سعال خافت ، لا من مرض ، بل وقفات تهدىء بها نفسها وتعيده إلى نظامه ، رأسها يتمايل وهي تنقله من الكتف اليمين إلى الكتف اليسار ، تعود نظرتها كل مرة وتستقر على الأسطى حسن ، نظرة خالية من الفهم والاهتمام والشخصية ، هي حركة مقلة من طبيعتها التحرك ، بمبة متعبة ، والتعب هو المعول الوحيد الذى يستطيع أن يهدم - رغم جبروتها - أقوى العيون ، وأكثرها جاذبية وأشدّها سحرا ، بعض العيون تظل ناطقة ، والجسم يحتضر ، وبعضها قد يرمد أو يختفى وراء نظارة سوداء ومع ذلك يحس بها ويشعاعها ، هذه العيون ذاتها لا تقوى على التعب ، إذا لمسها غاض مأؤها وذبلت وضاعت .

ألف مرة في اليوم تطلع بمبة السلم وتنزل ، بمبة ! أقدم ! حاضر ! بمبة ! طيب ، أقعدى ! إنزلى ! اذهبى ! أنظرى ! طول عمرك خيانة . . من الكبير والصغير ، فللكل حق عليها ، لو كان عود الكيريت في متناول يد طالبه فإنه يناديها لتأتى له به . . في عينيها وهي جالسة بجانب الباب صراع واضح يكاد يتكلم ، نظرة تتملص بجهد ، وعلى مهل ، رويدا رويدا ، من قبضة قاسية خانقة ، واستمر الصراع زمنا غير قصير ، ثم

استبانة النظرة قليلا قليلا ونظقت عينان صافيتان لون إنسانيهما كلون
الكهرمان .

وكان الأسطى حسن قد زحزح المقعد من جوار الجدار ، ورقد تحته ،
وبدا يشد المسامير بكماشة ، ثم خرج ، وتريث ، وحك رأسه ، والتفت
لجمبة يقول :

- ياست جمبة ، من فضلك وإحسانك ناولينى بق ميه ..

شرب الماء ، وتناولت الكوب منه ، ومع ذلك ظلت واقفة بجواره ،
تتملك انتباهها حركات الأسطى حسن ، وهو يقذف بحفنة من المسامير
إلى فمه ، ثم يخرجها واحدا بعد واحد ، ويفرزها فى جانب المقعد ويهوى
عليها بالشاكوش .. منظر مسل .. يقول لها والمسامير حشو فمه فى لهجة
الأهتم :

- ما تستريحى ياست جمبة ..

فجلست بجواره ، كانت قد استراحت وانتظم تنفسها وتمتعت بنظرها
بحريتها فعلقت بشعر الأسطى حسن وإنحناء كتفيه والخاتم فى خنصر يده
اليمينى ، ولا حظت اتساخ قبة جلبابه ، ونقصان زرار فى قميصه ، وسألته
بصوت رفيع سريع ، كأنها تكلم طفلا عودته التدليل ..

- مين ييفسلك هدومك ؟

- واحدة من الجيران ..

- ساكن فىن ؟

- فى المغريلين ..

- مش بعيد عليك ؟

- لا ، على رأى الفلاحين ، فركة كعب ..

أضحكتها إجابته ، لم تفتح فمها فبرزت ذقنها قليلا ، وضافت عينها فتجمعت الجلود على صدغيها ، سأل الأسطى حسن نفسه «لماذا تضحك ؟» وتنقلت نظرتة من شعرها الفاحم ، إلى حواجبها السود الغليظة تمتد قليلا على صدغيها ، من أذنها إلى ثدييها المتهلدين قليلا على بطنها ، تربطها بحزام هو ربطة عنق بالية ، على رأسها طرحة سوداء ابيضت وكثرت خرووقها ، وجه ساذج نحيف محمر ، وجلد ترى خشونته ، وأيد مقلمه الأظافر (باين عليها من أهل الله !) لم تحد نظرتها عنه ، وتحملت فحوصه غير قلقه ، تبسم من نفسها لنفسها ، كأنها على وشك الضحك من جديد لو نطق بكلمة أخرى ، قضحكة بمبة سهلة الاستشارة ، تخرج من حلقها غير مسموعة الصوت ، ولكنها تستمر برهة كنغمة الوتر في نهاية تذبذبه ، لم تضحك مرة بصوت مسموع ، ولا يعلم أحد هل هذا هو طبعها أم من تأثير تربيتها ..

وعب بمبة للنديا فوجدت نفسها خادمة في منزل الست دولت أم الست خيرية ، لا تعرف لها أبا ولا أما ، أسرتها أسماء ، أمها على قول الست دولت كانت خادمة أيضا ، تدل تقاطيع بمبة وسحتتها ولون عينيها وندرة اسمها في مصر على أن دما غريبا يجري أو يخالط الدم المصرى في عروقها ، لعل أسرتها من منطقة المنصورة أو دمياط ، وخدمت بمبة الصبية سيدتها إلى أن ماتت فورثتها الست خيرية فيما ورثته عن أمها ، أخذتها معها للريف ، وكانت بمبة فتاة في سن العاشرة ، خفيفة الحركة ، سهلة القيادة ، حضرت الست خيرية وهي تلد أولادها ، هزّت لهم المهذ ، وغسلت قماطهم ، وحملتهم على يديها وعلى كتفيها ، هي التي تخرج بهم للفسحة وتصب الماء

في الحمام على أجسادهم العارية وبحك الظهر والعجيزة ، ومر الوقت يجري والشغل لا ينقطع ، وأغمضت بمة عينيهما وفتحتهما فإذا الفتاة الصغيرة امرأة في سن الأربعين ، مقطوعة النفس ، لا تهمد من الصباح للمساء ، أمات التعب تفكيرها وحرمتها النمو الروحي ، فهي جسم صحيح وروح أعلاها الكُساح .

وميمة رغم سنها لا تزال طفلة ، في قلبها رهبة دائمة من الست خيرية . تضحك للتافه من الأمور ضحكته الخافتة التي تغمض لها عينيهما ، ثم تنسى ، وتجري على العيال في السلم ، وتضربهم ويضربونها ، وتبرز لهم لسانها ، وتأخذ من حلواهم وتقضم منها وتعيدها إليهم ، حتى النقود لا تعرف حسابها ، وتفهم المليم أكثر من فهمها للقرش ، لا تقطع في شراء شيء من بائع متجول إلا إذا جاءت الست خيرية ويدها مطبقة بقوة على النقود وراجعت الحساب عليها ، فاصِلت مرة بائعا وانتصرت عليه بمهارتها وحيلتها وأخذت منه خمس أقات بطاطا بأربعة قروش وكان يطلب في الأثنين ثلاثة قروش تعريفة . . قالت لها الست خيرية «والنبي تلهي على خيابتك . . دى خييتك بالوية!» .

يحبها الكل ، وهي تسير في ذيلهم ، ولو سألتها لأجابتك أنها تحب الجميع على السواء محبة واحدة ، وهي صادقة غير أنها تشعر نحو محمود بميل خاص ، ترمقه دائما بنظرات مملوءة محبة صادرة من القلب ، لو تأخر في العشاء أبطت له خير ما في الحلة من لحم ، لأنه هو الابن الذكر الوحيد ؟ أليس هو سيد البيت ؟ أم لأن البنات يلازمها في خدمة الدار وينيرنها ويستتن عليها ولا تسلم طول النهار من لدعات لسانهن وشتائمهن مهما فعلت وقطعت نفسها أربع قطع ، والواقع أنها تحب محمودا ولا تدري

لماذا، حتى لو تحببنا عليها وشتمها نفس الشتم ، إذ يكون في غالب الأمر غاضبا أو متعجلا ، وليس شتمه صادرا من قلب أسود مملوء بالسخيمة يتلذذ من صب الإهانة البذيئة على رأسها كقلب أخواته البنات أو قلب زوجها ، قد يرجع السبب أيضا إلى أن محمود يحب دائما أن يمازحها ويعاتبها ويتدلل عليها ، يسألها في بعض الأحيان وهو راقد في فراشه أن تدلك له ساقية وقدميه فتميل عليه فيداعبها ويضاحكها معيرا إياها برائحتها النتنة ، وقملها المتناثر وشعرها المتساقط في الطبخ . . مند متى لم تستحم ؟ وهكذا . . وربما زاد وعابها معاينة مكشوفة . . تضحك مرة لكلامه وتنهه مرة أخرى كأنه طفل تريد أن تؤدبه وتدلله في آن واحد . وهكذا يمضي نهارها ، وقد اعتادت الشتم وأصبحت لا تأبه له ، لا يتجهم وجهها إلا إذا جابهها أحد بقوله إنها ساذجة بلهاء ، تغتم لحظة ، ثم تنسى ، ويعود مرحها سريعا إذا تجمع حولها العيال ، والعجيب أنها لا تغضب لهذه التهمة إذا جاءتها من الست خيرية ، هي تلازمها صباح مساء ، ولا تفارقها ، حتى النوم ، تحب تحت أقدامها وتجلس «تفقر» برأسها إلى أن تأمرها الست فتطلع إلى السطح لتنام على حصيرتها . . ليلة دخلة نغمات سهرة مع الست خيرية للصباح في حجرة مجاورة ، وكانت هي أول من دخل على العروس في الصباح وغيرت ملابسها وغسلت لها غسيلها ، وليلة دخلة (زينات) جمعت الست خيرية رأسها إلى رأس بمة تغالب اللهفة ، النعاس في عينيها ، ولكن الست لم تصبر ، فزينات آخر العنقود ، وقبل الفجر سمعت الأم حركة خفيفة في حجرة العرس ، فسعلت ، فخرجت لها ابنتها وكانت بمة هي التي تلقفتها من على الباب وطبعت على خدها وفمها المنهك ثلاث قبلات تنال من شفاه مفرطحة تلصق باللحم . .

وكانت بمبة تود أن تسهر بجانب حجرة محمود ليلة دخلته ولكن الست خيرية أرسلتها للسطح وهي تقول :

- دى أوعى منك ومنى . . دى تلعب بالبيضة والحجر .

ولما وصلت بمبة ليلتئذ لحصيرتها لم ترقد ، هي متعبة ولكن جسمها مشدود ، جاءت لسور السطح وارتككت عليه فضغطت الركنة ثدييها على حافة الجدار ، ونسيت بمبة الزمن ومروره وهي منحنية نظرتها تائهة ، يد مجهولة تهصر قلبها ، ثم انتهت فجأة وجسمها ينتفض . التفتت وراءها تقول :

- أعوذ بالله من كل شيطان .

وسارت مسرعة إلى فراشها .

٣

وتوثقت الألفة مع الزمن بين الأسطى وأصحاب البيت ، وكأنه هو الذى فتح له الباب وكشف له دخائل المنزل ، وشخصيته هي التى أكملت بقية الطريق ، إذا جلس العيال على باب الدكان لشم الهواء فهم فى أمن ، توصيه بمبة فى الصباح أن يستبضع لهم ما يحتاجون إليه من الخضار والفاكهة ، فيشتري من الباعة المتجولين خير ما لديهم بسعر بخس ، وقد لا يكون لله شقة البطيخ التى ترسلها له الست خيرية مع بمبة عند الظهر فى بعض الأيام ، أو طبق الملوخية الباتئة «قرديمى» بلا لحم ، أو قطعة الفطير «المشلت» يوم وصول أحد أقرباء أزواج البنات من البلد ، واعتاد

أصحاب البيت على سماع خطوته وهو يدخل إلى الفناء ليملاً القلة أو يبول في المرحاض ، وأصبح الأسطى حسن بعد قليل يعرف أساء أقاربهم وصناعاتهم وأساء المستأجرين ومشاكلهم ، بل يعرف كل من يتردد على المنزل ، كالدلالة وابنتها ، والبلانة والقابلة ونظلة الهابلة وسارة الشامية بائعة الصابون والشيخ أحمد المجذوب . .

عيبه الوحيد أنه لا يدفع الأجرة بأكملها يوم أول الشهر ، فتدعوه الست خيرية إلى الصعود إليها ، فيطلع ويقف أو يجلس على كرسى بجانب الباب وهي تكلمه وتصلح طرحتها فوق رأسها ، ويدور بينهما حديث طويل ينتهى في أغلب الأمر بروضوخ الست خيرية لرجائه في أن تصبر عليه قليلا وهو يقسم أن هذه آخر مرة يُقَصَّر فيها عن دفع الأجرة في موعتها .

لا يظن أحد لبمة وهي واقفة بجواره عيناها عليه ، نظرة تشمله من رأسه إلى قدميه ، كأنها أم تنظر إلى ابنها الفالح يلبس ثوباً جديداً أمام المرأة فينسجم عليه ، شفتا بمبة تنفرجان عن ابتسامة خفيفة ، يدها الحمراء على خدها ، ورأسها مستند إلى حافة الباب ، تسعل بين الحين والآخر سعالها المتعب ، تنسى تحذير سيدتها وتمد لسانها في بعض الأحيان وتدافع عن الأسطى حسن ، ثم تنزل وراءه وتشيعه للباب ، وقلما تنزل بمبة الآن للفناء ، دون أن تنادى الأسطى حسن من شق الباب ، لسبب أو لغير سبب ، للفارغ والمِلَّان . . هي التي اقترحت عليه أن يعطيها ملابسها لتفلسها له ، ولما كلم الأسطى حسن الست خيرية في هذا الأمر تجاهلت بمبة أنها تعلم شيئاً ، وتمنعت قليلا ، ليكون مفهوما أنها لا تفعل ما يطلب منها إلا تحت إلحاح الأسطى حسن وبموافقة سيدتها . . تغسل له كل

أسبوعين جلبابه وقميصه وسرواله ، وألفت بمبة عرق الأسطى حسن
وأصبحت تميزه عن عرق أهل البيت ، تناوله في الصباح التالى ثيابه مطبقة
نظيفة فيأخذها ويقول لها :

- ياسلام ياست بمبة ، قليل زيك في الدنيا ، من إيدين ما أعدمهاش
أبدأ .

فتبتسم له عن أسنانها الصففر الغلاظ ، وتسليم الغسيل وتسلمه
مناسبة لا تمر دون أن يشتكى لها صعوبة العيش وهو أعزب غريب في
مصر ، يسكن بمفرده في منزل يعجّ بسكان عيونهم تنذب فيها الرصاصة ،
لا يجد راحة في نومه ، ولا طعاما هنيئا للقمته ، وملابسه مبعثرة بين البيت
والدكان .

وكانت بمبة تنقل هذا الحديث كلمة كلمة إلى الست خيرية ، كان
جوابها آخر مرة :

- أحسن له يجوز . . ياريت يشوف له واحدة بنت حلال تصون له
نعمته .

٤

وانخطمت بمبة أياما طوالا في نوبة من الجزى وطلوع السلم ونزوله ،
أفندم ! من الانحناء والقرفصة ، حاضر ! من القيام والقعود ، طيب !
من فوق لتحت ، نعم ! خذى ، هاق ! ودّى ! جيبي ! ماتعرفيش
الشمال من اليمين ، الى جاي من الجبالبة اتعلم وانت لست زى الهم على
القلب .

ثم استفاقت ذات يوم فإذا هي وحدها بالدار ، خرج الجميع لعمل أو لزيارة ، وكانت تكنس السلم ووصلت إلى الفناء ، ثم وارت الباب لترمي القمامة ، والتفت فرأت الأسطى حسن خارجاً من الدكان وفي يده القلة ، ففتحت له الباب ، واتثنت معه تصحبه للصنبور ، ومدت يدها لتأخذ منه القلة ولكنه تشبث بها :

-خلى عنك .

وتلامست أيديهما برهة ، وانحنى الأسطى حسن ووضع القلة تحت الصنبور ، ووجه بمجة الهادىء تتغير معالمة فى لحظة ، تندلق عليه ضحكة ساذجة وتلمع عيناها ببريق صياني خيىث . .

ومدت يدها المبتلة نحو قفاه ولمست بإصبعها جلده فانفض الرجل وهب واقفا ، حركته المفاجئة أذهلتها فقفزت من مكانها والتصقت بالجدار وستررت رأسها بذراعيها ، كطفل يلعب «الاستغماية» لم يتمالك نفسه من الضحك ، شىء فى وقفها وضحكها وجزعها أفقده اتزانة ، فإذا به ، على غير انتظار ، يملأ كفه بالماء ويرش به وجهها ، فغرت فمها فى صرخة عالية طويلة مستمرة تقرب من «صوات» النائحات ، كأنها تتوجع من ألم حاد ، أو كأنها مقبلة على نوبة صرع ، وأحس الأسطى حسن أن شعر رأسه يقف ، صرخة مخيفة انخلع لها قلبه ، وقف برهة حائرا ، لم يخرجه من دهشته سوى الماء تشرق به القلة ويقرقر فى حلقيها . فقل الأسطى حسن الصنبور ، وعاد لبمة ، وقف بجانبها برهة ثم ربت على ظهرها ولمس رأسها وانحدر ذراعاه إلى كتفها واستدار حول رقبته ، تضاءلت بمجة وكادت تهبط إلى الأرض . قال لها :

- لما انتى مش حل الهزار يابنت الحلال بتهزرى ليه ؟ كان جوابها :
- رش المية عداوة .
- لا أبداً ، هو فيه أعز عندى منك ، دنتى ضفرك عندى بالدنيا ياست
بجة !
وأخذت بجة تعيد لف الطرحة بيديها ، وعادت لذهنها كلمة سمعتها
من قبل عشرة أيام كانت قد نسيتها فإذا هى الآن تملأ رأسها :
« ياريت يشوف له واحدة بنت حلال تصون له نعمته .
وريت الأسطى حسن مرة أخرى على كتفها واستسمحها وأخذ القلة
وخرج .

١٠

طعام العشاء هو المناسبة الوحيدة التى تجتمع فيها الأسرة كلها معاً ،
جلس الجميع حول مائدة من الخشب الأبيض ، بين كل كبيرين شيطان
من الإنس يساهم فى الضجة بزعيقه وزياطه ، فائقة وحدها تمتاز بكحلها
وثوبها المطرز ، وباقى الجالسين فى ثياب المنزل ، شعرهم هائج أو ملبد ،
لفرج أفندى سروال طويل تظهر له أربطة من تحت ذيل الجلباب ، وحلمى
أفندى يلبس طاقية تهبط إلى حواجبيه ، هم ملح الأرض ، يأكلون
بأصابعهم ، ويقطعون الخبز فى لقم كبيرة تعمل عملها فى صحن الطبخ ،
ومبة واقفة تناولهم الماء والخبز وتذهب للمطبخ وتعود حاملة الأطباق .

كان أول الطعام ليلتذ طبق ملوخية ، وحين بدأت اللقم الغموس
فتحت الست خيرية سيرة زواج الأسطى حسن وأخبرتهم كيف طلب منها

أن تتوسط له في خطبة بنت حلال من معارفها .

محمود - عشان ما هو ساكن ملكنا رايح يلقح جتته علينا لا . لا .
إحنا ما نتداخلش في حكايات زى دى ، وقالوا احضر جنازة ، ولا تحضر
جوازة ، وعلى كل حال ده رأيى .

فائقة - ما هو الصنف ده كده ، لما يلاقى وش .
خيرية - ما فيش أحسن من عمل الخير ، ما تعرفوش يابخت من وفق
راسين في الحلال ؟

زينات - ياترى يدفع مهر كام ؟
حلمى - ده شىء يغيب ، راجل يماطل في دفع ثمانين قرش كأنهم
ثمانين جنيه وبعدين يقول عايز أجوز ، وتلاقيه يدفع المهرزى الخلاوة .
فرج - عندنا ساعى في الديوان له بنت حلوة .
نعمات - شفتها ؟

فرج - لا ، لكن أبوها راجل طيب .
نعمات - وایش دخل ده في ده ، ياناس ! ياأخى أجيب لك شوية
عقل منين .

وأخذت بمجة طبق الملوخية ووضعت بدله طبق باذنجان مقلى عليه لبن
زبادى .

زينات - إحنا مالنا ومال الغرب ، وح نروح بعيد ليه ؟ عندنا زينب
بنت الدلالة .

فائقة - أهو تلاقيه ناقضها من ساسها لراسها وهى داخلة خارجة
وقليل ما سألها عن «صيغة» أمها ذهب ولا قشرة .

خيرية - أنا برضة عاوزه أوريه العروسة قبل ما تقطع عرق ونسيح
دم .

نعمات - هو ماله ومال واحدة بنت بلد تلوعه وتبغدد عليه ، دى
زينب بتتكلم بالعين والحاجب وهى لسه ما طلعتش من البيضة ماتكلموله
الشيخ مهدي المستاجر الجديد ، له بنت مش بطالة ، وحتى حافظة القرآن
وتصل .

حلمى - حقيقى جهاز المنجد أرخص جهاز ، هو الى ينجد الجهاز
على إيده ويفرشه بمعرفته ، يقف عليه رخيص خالص . .

فرج - طب والحلل ؟ طب ده السرير وحده يتكلف مبلغ .

فائقة - ياسيدى يناموا على الأرض ، سرير نحاس أصفر «وبلداكان»
وناموسية ، وكرسى سرير قطيفة ، والحيطان مهيبة .

بمبة تملأ الكوب الوحيدة وتناولها ذات اليمين وذات اليسار ، وحينها
ينقطع الشرب تأخذ الفوطة وتهش بها الذباب من على الأطباق . . لا
تسمع الحديث الدائر كله ، فهي تذهب للمطبخ وتعود . . إلا أن سعالها
الخفيف زاد تلاحقه وتكراره ، لا يخرج من حلقها سهلا هينا ، بل يسمع
له عند انفصاله عن حلقها حشرجة مكتومة . .

خيرية - أنا حاطة عيني على فردوس خدامة الجيران ، أهي بنت يتيمة
ومنكسرة ولا تتعبوش ، حلوة مش بطالة ، سنها صغير صحيح ، لكن
جسمها فاير ، زرع بدرى .

فائقة - بس لو تعجبه ولا يقولش عليها سمره وشعرها مكتكت ،

قليل ما قال أنا عاوز بنت من عيله غنية عندها طين .
خيرية - لا مابقولش كده ، ده ولد طيب ، عايز حاجة تستره وأنا
عارفه أنه ح يقبل لما أكلمه أنا عشانها وأمدح له فيها .
وكانت الأيدى تذهب ونحىء على طبق الأرز حتى هبط كله وانكشف
قعر الطبق ، ودارت ملعقة نشطة جمعت الحبات المتناثرة على أطرافه .
مدت بمية يدها لتأخذ الطبق فصدمت الكوب فانقلب وانسكب مأؤه
وبلل حجر فرج أفندى .

التفت لها الجالسون وانعقدت ألسنتهم ، بمية فى حال لم يروها عليه
من قبل . . وجهها الأحمر مصفر ، وشفتها السفلى زرقاء ، ترتعش ،
تتكلم غير واعية نفسها :

- ياست مفيش نصفه ؟ .

- جرى إيه يابمبة ؟

- ليه كده ؟ بعد تعبى عليه وشقايا فيه وصبرى . .

انقطع تنفسها ولم تستطيع أن تتم جملتها .

- جرى إيه يابمبة ؟ .

- اتكلمى ! بسم الله الرحمن الرحيم . قولى !

- يعنى إيه تاخدوا الجدع من إيدى !؟

هبطت على الجميع دهشة تملكتهم ، خرس الألسنة كلها وشمل
المائدة سكون . . دهشة مصحوبة بغياب الذهن وشروده ، يخبرون فى
أنفسهم تيارات مبهمه من أحاسيس غير واضحة ، هم كالراقدين تحت
السماء . حينما يتململ للشمس قد ذرقرنها فوق الأفق ، هونائم ، ولكنه

يشعر وهو غارق في غيبوته ، بالقوة والوهج المقترنين وعماً قليل يشملانه ، ولو كان في تمام اليقظة لما جاوب إحساسه مدركاً عظمة الشروق تتجلى على الكون وعليه . . فإغفاؤه هو الذى مكن المقدرة الحقة الكامنة في كل قلب من أن يتملص من سيطرة العقل وقوانينه وخرافاته وأوهامه وريثة التقاليد والمخاوف والرياء ، أن يتهرب من عصاه الجاهلة القاسية ، وتتفصل حرة كما برأها الله ، وتهتز كإبرة البوصلة كلما انكشف عنها الغطاء واندجحت في الكون وخشعت لخالقه وحنّت للقاءه ، يستيقظ هذا النائم والنهار عال فيقوم بفرك عينيه ويتأهب ، ليس هو الذى اهتز لبهاء الفجر بل كان المهتز شخصاً غيره .

يشعر القلب وحده في بعض الأحيان بإحساس ينحبس فيه ولا يتبته له صاحبه لعله يشعر به أيضاً ويتهرب منه ، ولعله يخشاه فهو يكتمه مكانه ، ولعل الذنب هو ذنب أعصاب بليدة لا تستسيغه ولا تنقله ، في قلب كل جالس حول المائدة عين من الأسى والحزن ومضت مرة ثم نامت ، كأنها لم تستفق أبداً . . يفقد الزمن في مثل هذه الأحوال بعض حركته واندفاعه ويصعب قياسه وضبط الشعور بمروره ، لا يدري أحد من الجالسين حول المائدة كم دام هذا الإحساس الغريب ، هو لم يدم إلا أقل من لحظة انقضت وتركت وراءها ضجة ونقاشاً من كل ناحية ، واندفعت النسوة الشابات في ضحكة عالية ولحق بهن الرجال وقام الجميع من الأكل وهم يقهقهون .

وقال خلمى :

-جـرى إليه لعقلك يا بـمـبة ؟

وجلست إلى الباب وهى تسعل مرة إثر مرة ، غير متببهة للملاحظات

تنهال عليها .

لمست الست خيرية رأسها وهي تمر أمامها وقالت :
- ده العقل جوهره ، ربنا مايحرمكيش منه ، إنت يابنتى انجنتى ،
سلامة عقلك !

لبثت مكانها برهة غير قصيرة وهي لا تتحرك ، ثم قامت ودارت حول
المائدة تجمع اللقم لعشائها .
ورفعت نظرها فوجدت أمامها عمودا واقفا يضحك .

- والنبى تقولى لى يا بجمه ، صحيح لو اتجوزتبه تعملى إيه ليلة الدخلة ؟
ابق اشترى حق حسن يوسف وعلبة بودرة ، إن كان على الكحل عندك
هاباب الحلة ، يومها ابقى استحمى بس أخاف عليك من الحمام يجسبك
قوى ، أصل سممتك أكثرها وساخة .

وبدأ فمها يمتد شيئا فشيئا واستعرض فى ابتسامة يعلوها الخجل
والحياء . وهذا الغيظ فى عينيها وبان الرضا والرضوخ القديم ..

- إخص عليك ! أنا مش أبدى من الأسطى حسن ؟ الجار مش أولى
بالشفعة ؟

ضحكة كبيرة عريضة على وجهها ، تشمله من الجبهة للذقن ، من
الأذن للأذن ، وبدت فى صوتها نغمة التدليل التى لا تظهر إلا حين ترد على
معاتبات محمود !

- يلا ، يلا من هنا ، بلا قلة حيا .

وجلست وحشت فمها بلقمة كبيرة وبدأت تمضغ وتبلع .

(المجلة الجديدة) السنة الثالثة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٣٤ ، ص ص ٦٥ - ٧٨

أكره من نفسى تأثرها الشديد بحال من أعاشره من الأصدقاء عشت
- وأنا الفقير - زمنا غير قصير أتبع باهتمام أسعار الأسهم والسندات ،
أتعجب لهبوطها ، وأفرح لارتفاعها ، لأننى كنت أعاشر فى تلك الفترة
صديقاً يشتغل بتجارها ، وقد مرت على الستان الأخيرتان وتفكيرى
لا ينقطع ليل نهار فى مشاكل الزواج فى مصر ، والفضل فى ذلك - وبعض
الفضل بلوى - راجع إلى صديقى القديم عبد العزيز فواز .

كان أبوه كاتب مركز ، قضى عمره متنقلا - كالبدو - من بلد إلى
بلد ، ولما نال عبد العزيز دبلوم الفنون والصنائع وظَّف بتفتيش الرى فى
السودان ، وغاب عني عشر سنوات ادخر فيها المهر ، ثم نُقل إلى القاهرة ،
فوصلها لا يكاد يعرف أحدا غيرى ، فأصبح يلأزمى ويسهر معى كل
ليلة ، وقاطعت بقية أصدقائى ، وأهملت بعض شؤونى من أجله .

كان ذلك منذ ستين ، ولا أزال أذكر إلى اليوم كيف أفضى إلى فى أول



جلسة لنا ، برغبته في الزواج ، فهو شاب مستقيم ، موفور الصحة ،
والمهر حاضر عنده ، بل عنده أيضاً مجموعة نادرة من جلود الثعابين
والسحالي والتماسيح ومراوح ريش النعام تغنيه عن تكلف شراء الهدايا
للعروس التي لا تزال في عالم الغيب .

وفي الجلسة الثانية بدأ عبد العزيز يستنصحن ويشكو الى متاعبه قال :
- لي زميل يعرض على إحدى قريباته ويطرحها ، (فعلمت أن زواجه أصبح
حديثاً شائعاً في ديوانه) وطلب إلى أن أصحبه لزيارة أهل الفتاة لكي أراها
ولكني اعتذرت ، لأنني خجول ، وثقيل على نفسي أن أدخل دار كل من
فيها - حتى الخدم - يعلم أنني جئت خاطباً . . كيف أتهرب من الشعور
بأنني « ملقح جتية » أو أنني في أزمة سببها قلة حيلتي وخيابتي ، ولا يقبل
حيائي أن أجرح إحساس الأسرة بالرفض إذا لم تعجبني الفتاة ولن أسلم
بهذا الرفض من أن تسلقني الأسرة كلها - والفتاة في مقدمتها - بالسنة
حداد ، بعد تبادل الابتسامات والتحيات الزائفة في حجرة الاستقبال .

وفي الليلة التالية جاءني يقول :

- لقد اتفقت وزميلي على أن يجمعني بقريته في السيما ، وقد رأيت من
الكياسة أن أشتري أنا التذاكر ، وسأذهب غدا ، وقد أقسم صاحبي أنه
لن يخبر الفتاة بشيء ، وأنها ستجهل أن ذهابها للسيما إنما هو لعرضها على
خاطب ، وأن اللقاء سيتم كأنه يحدث مصادفة لاعتقادي قصد وترتيب .

وبطبيعة الحال حثت الصديق في يمينه ، وارتدت الفتاة أغلى ما عندها
من الأثواب ، واشترت حذاءً جديداً .

وصل عبد العزيز مبكرا واختار له ركنا متزواً في مدخل السينما ، وظل يتطلع للقادمين حتى رأى صديقه عن بعد ، ولكنه لم يستطع لشدة الزحام أن يتبين وجه الفتاة بل رأى منه نفثا متناثرة بين الأكثاف والطرايش والقبعات ، ووجف قلبه حين رأى معها سيلة عجوزا ، جائعة العينين ، وأدرك أنه هو الفريسة المنتظرة . ثم شد من عزمة ودخل الصف ومر أمام زميله فإذا به يهب واقفا يسلم عليه سلام المشتاق المتعجب لهذه المصادفة السعيدة التي تجمعهما على غير انتظار ورتب أهل الفتاة جلوسهم بحيث جاء مقعده عن يمين العروس ، ولكنه لم يكد يجلس حتى أطفئت الأنوار ، وظلت جارته كالمنومة لا تحرك رأسها يمينا ولا يسارا ، وأصبحت الأم فجأة بتصلب في شرايين رقبتها أمال رأسها نحوه ، لانتحول عنه ، ينبعث من عينيها في الظلام شعاع لا يقل لمعانه واتصاله عن شعاع السينما المتدفق إلى الشاشة ، وفي فترة الاستراحة وقعت نظراته إلى معصم جارته فرأى ساعة جميلة من شرر الماس ولكنه لاحظ أنها واقفة على «عشرة وثلاث» وساد الظلام من جديد ، ثم أضيئت الأنوار ، وتدفق الجميع - تسوقهم موسيقى (مارش) عسكري سريع - نحو الباب ، وأخذ صديقه يصرخ في طلب سيارة - مع أن دارهم قريبة - ثم غابوا عن بصره وهو واقف غارق في عرقه ، وهكذا انتهى عرض الفيلم والفتاة أيضا .



قال عبد العزيز شاكيا :

- بالله عليك كيف أصدر قرار حاسما في أمر يتوقف عليه مستقبل وسعادتي بعد مقابلة خاطفه كهذه ؟

ثم جاءني بعد أيام وفي عينيه جهد الصابر الذي امتحنه الله ببلاء قاصم ، وقال لي إنه قابل فتاة - عن طريق وزارة الأوقاف - في حديقة الحيوان ، وأخرى - عن طريق مجلس الوزراء - عند شيكوريل ، وثالثة عن طريق وزارة المواصلات - في حديقة الأندلس ، ولكن الأولى قصيرة ، وهو يريد لها طويلة ، والثانية طويلة ولكنها بدينة وهو يريد لها عمشوقة القد ، والثالثة سمراء وهو يريد لها بيضاء ، فهو قادم من السودان ، ويكره السمراوات أشد الكره .

فلم أملك نفسي من الرثاء لحاله ودعوت له بالتوفيق في محتته الكبرى . .

كان صديقي قد يش من نجاح خطة اللقاء خارج الدار ، واختفى خجله بفضل التدرّب والتمرّن ، فأصبح لا يتهيب دخول البيوت من أبوابها .

فرأى فتاة في منيل الروضة (تكاد تقع من فرط هزالها) ، وأخرى في العباسية (في عينها حول) وثالثة في شبرا (لها ضب) .

قلت له الزواج «لوترية» ، يا نصيب ، فأمن على قولي ، ولكنني وجدته لا يعنى بهذه الحكمة أن التوفيق في هذه الأمور هو من عند الله لا من سعى البشر ، بل وجدته قد فهم من «اللوترية» أنها شيء تكسب منه مائة . . جنه بقرش واحد ، وإلا عددت نفسك خاسرا . .

وأخيراً نصحته - توفيراً للوقت والجهد - أن يلجأ للخاطبات فسألني ان كنت أعرف واحدة منهن ، ولحسن الحظ لاتزال في حينها خاطبة مشهورة

اسمها زنوبة ، كانت أمها دلالة والظاهر أن زنوبة ترملت في شبابه فلم تجد لنفسها مرتزقا الا أن تسلك سبيل أمها ، بل جاوزتها وأصافت على مهنتها الموروثة مهنة الخاطبة ، يتحدث الجيران عن غناها الوفير وتقديرها الشديد على نفسها (وكان الأرقام عندها خلقت في الأصل لعد النقود) ، فهي رغم شبابه تلبس طرحة سوداء وثيابا بالية قديمة ، وإن كانت نظيفة . لها أصابع كمخالب الطير تشد بها على حقيبة يد عتيقة جدية بأن تجد لها مكانا في المتاحف ، وربما عرجت في مشيتها قليلا لأن كعب الحذاء ملئ متآكل ، وهي تضع على عينيها نظارة زجاجية لها إطار من المعدن الأبيض ، تطل من ورائها عينان متضخمتان . كلامها ساحر وحجتها لا تهمز .

أخذت عبد العزيز إلى زنوبة فنظرت إليه نظرة فهمت منها أنها قرأت (٢٥ جنيتها) مكتوبة بأرقام واضحة على وجهه ، هذا هو تقديرها لأنعابها المنتظرة ، وتركته معها ، وخرجت ، فليس أكره على السمسار من رؤية رجل دخيل بينه وبين الزبون . .

قدّمت إليه زنوبة قدحا من القهوة ومفكرة حافلة بأسماء وعناوين وبيانات عن الأقارب ذوى السلطان ودرجة التعليم ومقدار الاستحقاقات في الأوقاف إذا مات الجد أو الجدة بعد عمر طويل . .

وتفتحت لعبد العزيز أبواب دنيا جديدة وأخذ يقلب صفحات المفكرة ، كأنما يقرأ قصة شائقة استولت على لبه وفؤاده ، ثم جاءت زنوبه بمجموعة كبيرة من صور فوتوغرافية لفتيات ، فيهن المبتسمة والحجولة ،

والمعتدة بنفسها ، فيهن من تلبس ثوب السهرة ، وفيهن من اختارت زى الفلاحة ورقدت بجانب بلاص . . وعبد العزيز الجائع يجد نفسه فجأة في مأدبة شهية ، فلم يشعر بمرور الوقت وقام يتترع نفسه انتزاعا من مجلسها ووعداها بالعودة بعد يومين ، ولما خرج شعر أن الحياة حلوة جميلة ، وأن سهرته ألد سهرة قضاها في القاهرة منذ عودته من السودان ، وتمنى في قلبه أنها تتكرر .

وجاء الموعد فوجد عبد العزيز نفسه يسير مجدا إلى دار زنوبة ، ولم يكذب يجلس ويشرب القهوة حتى انطلق لسانه وأخذ يشكو لها متاعب حياة الأعزب وهمومه ، وجعلت زنوبة تسأله عن أسرته وماضى حياته ، وعن مأكله ومشربه ، وأين يسهر ومع من ، فاشتكى لها الوحدة وقال :

- لا أجد لي جلسا إلا جارك الذى تعرفينه وهو رجل شارد الذهن صامت قعيد قهوة . وكلما فارقتة أقسمت أن لا أعود إليه ولكنى لا أعرف أحدا غيره .

قالت له :

- سيوفك الله إلى عروس جميلة أجيئة فلتكن نيتك خالصة سليمة . .

مس حنوها قلبه فانتقل وجلس بجانبها على الكنبه وقال :

- لم أجد من يفهمنى غيرك ، وأنا أيضا أتوسم فيك ياسست زنوبة رجاجة العقل وطيبة القلب . ورأت زنوبة زرار فى ثيابه يريد أن ينفلت فقامت تحمىء له بخيط وابرة ، فلاحظ عبد العزيز أن مشيتها رشيقة وقوامها معتدل وإن كانت نظرتة تأففت من شعرها المكوم فوق رأسها ، وكره هذا

القرط الطويل - على شكل قلب مطعون بسهم - وهو يتأرجح كلما هزت رأسها ، وتلفت فوجد أثاث البيت رغم قدمه وقلته نظيفاً حسن الترتيب ، والبيت هادئ لاضجة فيه ولا ريكة ، القهوة مضبوطة ، والماء مبخر بالمستكة . . قال لنفسه (تري كيف تبدوا لو خلعت نظارتها) ؟

وعادت زنوبة وانحنت تخيط له الزر واقترب رأسها من صدره وكاد شعرها يلمس طرف أنفه ، وتشم رائحة جلدها وأحس دفء جسدها وثبتت نظرتة قليلا على هذا الزغب الدقيق المختبئ تحت منبت شعرها على قفاها ، لم يثبت له لون ، ولا استقام عود ، فذاب قلبه حنانا لبراءتها وضعفها ، ثم انزلت نظرتة على غير ارادته ، من قبة الثوب ، وقد هبطت عن صدر زنوبة لانحنائها عليه ، فوصلت إلى ملتقى ثديين مؤتلقين كزوج حمام زاقد في عش ضيق ، تحسبه غافيا ساكنا وهو ينبض ويهتز بسر الحياة . .

وقضت طرف الخيط بأسنانها وقالت وهي تبتسم له :

- إن كانت لديك ثياب في حاجة إلى إصلاح فجئني بها ولا تتهيب ، فليس أحب إليّ من أن أعين رجلا مسالما طيب القلب مثلك . .

ثم حدثته عن الفتاة التي اختارتها له وجاءته بصورتها ، فلم يرض بها عبد العزيز وصارحها بأنها لا تعجبه ، فقدمت إليه مرة أخرى مجموعتها فأخذ عبد العزيز يتنقل بينها وهو سارح الذهن إلى أن أشار إلى صورة فيها وقال :

- لو بدلت هذه الفتاة قرطها الطويل بقرط صغير لكانت أجمل كثيرا فان بدعة الأقراط الطويلة قد انقرضت ولا يتمسك بها إلا بنات البلد . .

وانتهت المجموعة فلم تغضب زنوبه ، بل استمهلهت يومين آخرين ،
فعمسى أن تقع على فتاة طيبة تليق له . وسار عبد العزيز في المرة التالية إلى
دارها وقد تأتق في ملبسه قليلا ، ومعه علبة شكلاته ، ولما ناولها العلبة
خفق قلبه ، إذ رأى في أذنيها قرطا صغيرا على شكل زهرة بيضاء ، وقدمت
إليه زنوبة فطيرا من صنع يديها وجلسا يأكلان من هديته وهديتها . .
والغريب أنه لم يبدأ الحديث عن العروس ، بل أخذ يروى لها حياته
والسفارة في السودان وهي تستمع له باهتمام ، وضحكا معا مرارا ، وإذا
بعبد العزيز يسألها فجأة :

- لماذا لا تخلعين هذه النظارة ؟

ومد يده ورفعها فقابلته عينان فيها شيء من الجحوظ شأن قصار
النظر ولم يكن يدرك من قبل أن هذه العلة تضيف على المرأة نوعا من
الجمال ، لأن النظرة تكون ناثية ، مضاعفة ، في غلالات من الأحلام ،
ورأى عينين صافيتين تطل منهما ابتسامة ذات حياء ، لسفورهما بعد
الحجاب الطويل .

وقال لها عبد العزيز :

- إكرامك لي إذا ما جئتك أن لا تعودى إلى هذه النظارة . فضحكت
وقالت له :

- وعليك ثمن الأقداح والأطباق التي تتساقط من يدي .

وخرج والليل قد انتصف وهو مرتاح الصدر هادئ الأعصاب .
وكان الموعد غدا .

وفي الغد عرضت عليه صورة فتاة جديدة فلم يكذب ينظر اليها حتى
نحاهما عنه وقال :

- لاتعجبني .

- لقد حرت معك ، فكيف تريدها ؟

قال لها وعيناه تتطلعان الى عينيها :

- أريدها في قوامك وطولك وعرضك وفي لون شعرك ، وطبيبتك
وظرفك ، وأريدها مثلك سمراء ، فما أحببت قط النساء البيض فهن
باردات على قلبي . .

تورّد خدّاهما وقالت له :

- تعال بعد غد ، عسى أن أكون قد وجدت طلبتك .

ولاحظ زملاؤه أنه انقطع عن الشكوى وأصبح أكثر مرحاً وانشراحاً ،
ولكنهم لا يرونه بالليل وهو يسير والنيل يشعر أن قلبه مهصور تشد عليه يد
قوية لا ترحم ، تجذبه جذبا إلى بيت زنوبة .

وذهب عبد العزيز الى زنوبة ، ولبثا يتحدثان طويلا ثم قال لها وهو

يبتسم :

- هل وجدتتها ؟

قالت :

- من ؟

قال :

- العروس !

فاضطربت كأنها تقوم من حلم وقامت وقالت :

- نعم وجدتها وسأتيك بصورتها .

فأمسكها عبد العزيز وأجلسها بجانبه وقال لها :

- لانسحك على أنفسنا ، وأنت تعرفين الآن من أقصد .



وانتقلت زنوبه من حينا وانقطع عبد العزيز عني ، ولكنى قابلته صدفة ذات يوم فأفضى الى بخبر زواجه من زوزو . . (هذا هو اسم زنوبه الجديد) واستحلفني بالله أن لا أذكر خبر زواجه لأحد ، لأنه - كما يقول - لا يريد أن يعلم الناس عنه أنه تزوج من امرأة غنية . . فطمأنته وباركت له ، ولكنه تمهل قليلا وقال :

- هناك شيء واحد لا أفهمه في زوجتي ، فهي حسناء طيبة القلب ذكية ، ولكنها كسرت خاطري في أمر هين لا يقدم ولا يؤخر . قدمت لها المهر المتفق عليه في ظرف ، ومعه مجموعة نادرة من جلود الثعابين والسحالي والتماسيح ومراوح ريش النعام ففتحت الظرف أمامي وعدت النقود فإذا بها تقول وقد بدت على وجهها دمعة واستنكار !

- لا يزال ينقصه مبلغ آخر ، هو خمسة وعشرون جنيها إن أردت الحق والعدل .

فأدرت عن صديقي وجهي حتى لا يرى ابتسامتي لهذه الخاطبة المحنكة التي نسيت عند تسلم المهر أنها هي العروس .

(مجلة الراديو المصري، العدد ٥٩٩ ، ١٩٤٦/٩/٧)

نشأت في أسرة محافظة لم يطرق التجديد بابها ، جدتي وأمي وأنا
نصطف على سجادة الصلاة جنباً لجنب ، طرحة جدتي يختلط بياضها
الثلجي بشعرها الأشيب وكأنها هالة القداسة ، وطرحة أُمي إطار بديع
لصورة بديعة ، وكانت عيني تغافلني وتختلس النظر إلى المرأة لترى كيف
أبدو في الطرحه وأنا أعقد أنشوطتها تحت ذقني .

ولا أبالغ إذا قلت انني لم أر زوجي قبل كتب الكتاب إلا مرة واحدة
يوم جاء يخطبني ، ولم أرفع نظري إليه حياء ، وتمت مراسم الخطوبة وأيام
الاستعداد للفرح وأنا في شبه حلم ، ولما جاء الوقت الذي أغادر فيه دارنا
ربتت جدتي على كفتي وهي تقول «هذه سنة الله ورسوله يا بنتي !» بكيت ،
روحي صعبت على ، خيل إلي أن أسرق باعتني بيع السماح .

واستيقظت فوجدت زوجي قصير القامة ، أبطن ، ضيق الصدر ،
حقيقة ومجازاً ، إذا خلع نظارته مع الليل بدت له عينان ذابلتان وجفنان

منكسران . يحضننى كطفل خائف يحتفى فى صدر أمه ، ولكنى لا أنكر أننى أحببت يده الصغيرة الرخصة وأناملها السريحة ، وكنت أرق لها كلما لمست كفى أو أخذت يدى ، اخذها بين يدى إذا أردت مصاحته بعد خصام ، (وما كان أكثره بيتنا) وأقبلها ، وأقول له ، كان كلامى موجه إليها :

- صافى يالبن ؟

ولكن كيف يصفو اللبن فى إناء تهب عليه أعاصير السموم . لم أطق صبرا ، وانفجرت يوما ، ثم لازمت فراشى ، وهجرت الأكل والشرب ، وجفانى النوم ، تؤرقنى الكلمات الجارحة التى نطق بها لسانى ، وأعجب كيف صدرت منى ، وأنا التى تكره الإساءة وتمتق الأذى . .

ولما رأتنى أمى فريسة للضنى أخذتنى إلى دارنا ، وعدت إلى فراش صباى ، وشد ما كنت مشتاقة إليه ، وأخذت من جديد أستمع لتمتمة جدتى وأمى فى صلاتهما ، أما مكانى فى السجادة فشاغر ، فقد أصبح بينى وبين الصلاة هوة كبيرة .

ولكنهم أعادونى لزوجى وأنا لا أزال مريضة ، فصبرت وابتسمت ، وجعلت تسليتى مراقبة الطريق من بعيد وأنا جالسة فى مقعد تحت شجرة فى حديقتنا الصغيرة ، إلى هذه الأيام يرجع بدء معرفتى بجارنا الجديد الذى سكن قبالتنا وأنا غائبة فى دار أمى ، وبفضل ثروة الخدم علمت طرفا من حياته ، يعيش وحده مع دادة سودانية تؤاكلة فى بعض الأحيان على مائدته ، يطالعنى وجهه إذا ما استيقظت حين أراه يفتح النافذة فيستبشر به الصباح ، وأراقبه وهو داخل خارج بالنهار ، أو تنصيد نظرق شبحه بالليل وهو يظهر ويختفى وراء أشجار حديقته . "طاهر" متوسط القامة ، ضخم

الرأس ، وضاء الجبهة ، كأنه يسير في الحياة على هدى نورها ، له عينان صافيتان ، ليس في نظرتها تساؤل ولا حيرة ولا فحص ولا استجداء ، يمشى بعض الأحيان كمشية البحارة ، أهومقوس الساقين ؟ أم تراه كان في شبابه من هواة الخيل ؟

ترى كيف كانت قبضته على عنان جواده الجامح ، وضمه ركبته على بطنه ، يقال إن الجواد الأصيل تسره من صاحبه هذه الضمة القوية وإن آلمته قليلا .

ماله لا يزوره أحد ؟ لم يروا امرأة تجتاز عتبة بابه ، ومع ذلك لم يكن يعيش وحيدا منفردا ، بل أحاطت به أسرة كبيرة : فهذا «تيدى» كلبه الضخم ، و«مرجانة» نسناسته المربوطة في سلسلة في ركن من الحديقة ، و«كوكو» بيجاؤه الذي اتخذ من النافذة مرصده ، وفي الشرفة قفص كبير ضخم مملوء بعصافير «الببروش» لا تنقطع زقزقتها ، ما بين صفراء وزرقاء وبيضاء وخضراء . . تعيش زوجين زوجين ، بينها من الإناث من هي شريرة مشاكسة ، تحب الجدل وتستثير العراك ، ومن هي وديعة مخلصنة لعشها ، ومن تغازل ذكر جاريتها وتخطفه منها . . لم التعالى والتعامى إذن وغرائزنا وطبائعنا هي صورة مطابقة لغرائز الحيوان وطبائعه ، أهذا جميل أم فظيع ؟

إذا عاد طاهر لداره بعد الظهر تلقفه «تيدى» من على الباب ، يقفز أمامه في الهواء حتى يكاد يوازي رأسه ، ثم ينكص ويثب إليه ويضع يديه على كتفيه ، ويمد لسانه يريد أن يلغق وجهه أو كفيه (هذه هي قبلته) ، ثم يتركه ويجرى أمامه للدار ، ثم يعود ويدور حواليه وهو يصبص بذنبه . .

ثم ينفض جسمه كأنما يريد أن يزيل عنه وخم كآبة انتظار الحبيب . . لقد بدأت حياته بعودة صاحبه ، كل هذا و «مرجانة» تكاد تقطع سلسلتها ، تقفز على قوائمها الأربع قفزات عالية لا تسمع لوقعها صوتا ، ثم تذرع المساحة المباحة لها ذهابا وإيابا ، قلبى يفهم ما فى قلب «مرجانة» من الغيرة ، يسير إليها طاهر فتقفز إلى كتفه ، وتحيط رقبتة بذراعيها كأنها طفل يخشى الوقوع ، وكل ما يعرفه من حروف الهجاء الهمزة . . تتسع حذقتها وتضيقان وهى تحملق فى وجه «تيدى» ثم تنتصب هالة من الشعر حول رأسها كلما كثر لها «تيدى» عن أنيابه . . نظراتها انتقالات خاطفة من الرعب إلى الجشع إلى العفرة وحب الأذى ، إلى الشعور بالجرم إلى خوف العقاب ، أما «تيدى» فلا يابه «لمرجانة» هو عاشق كامل لا يفهم الغيرة ويحتقرها ، فالغيرة تشغل من القلب مكانا تركه الحب خاليا ، ثم إذا صعد طاهر إلى حجرته أطلق العصافير من قفصها فتحوم حوله . .

وكان «كوكو» مسرة صبيان الحى كلهم . . يحب الصبيان معاكسة البيغاء إذ يمثل فيه لهم - فى صورة مضحكة - كل ما عانوه هم أنفسهم من تعثر النطق عند أول عهدهم بالإبانه عن النفس . . لا يرد «كوكو» على سبابهم الخالد ، والذي لم أهتم بعد إلى معرفة سببه وأصل منشأه - «أبوك السقامات» - إلا بقوله «ياولد ! ياولد !» ثم ينادى بين الحين والآخر «دادة . . دادة !» صرخاته تذكرنى بسيدة عجوز شتاء الشعر ترملت فى شبابها . . ولكن لا تبخس «كوكو» حقه ، فهو يقلد أيضا مواء القط ونباح الكلب . كل هذا وهو فى ريشه الملون كالممثل القدير يقوم بدور فارس فى ثياب زاهية ، متعال متكبر ، لا نصبل أمواج الحياة ، مهما علت ، إلى ركبتيه . . وما مر شحاذ إلا كان له نصيب من مطبخ طاهر . . لم أره قط

يعطى سائلا رغيفا مكسورا ..

واستيقظت صباح يوم على ضجة في منزل طاهر ، حتى دادة «بحر النيل» خرجت إلى الشارع ، الجنائى بعمامته الصفراء التقليدية يجرى من هنا وهناك ، وطاهر في بيجامته ينادى (كوكو ! كوكو !) ويشير إلى رأس شجرة عالية . وبقيت بالنافذة حتى فهمت من قنات الحديث أن طاهر فتح للبيغاء قفصه في الصباح ليهبط - كمادته - إلى الحجرة ، فإذا به يقفز إلى حافة النافذة - وكانت مفتوحة . فلم يسرع طاهر بغلقها ، وأراد أن يجرب إلى أى مدى سيتمتع «كوكو» بحريته ، كم تكون فرحته ، أنصورها وأنا بعيدة - لو طار «كوكو» إلى شجرة قريبة حتى إذا ناداه صاحبه هرع إليه .

ولكن حلمه لم يتحقق ، والحرية تؤخذ ولا تعطى ، فقد طار «كوكو» إلى الشجرة ، ثم بدا عليه خين نغم بالحرية في أحضان فروعها أنه نسى كل عهد وميثاق ، رآه خادم أحد الجيران فتطوع لاستنفاذه ، وأتى «برأس العبد» وحاول أن يلمس بها «كوكو» فإذا بالبيغاء يطير إلى شجرة أبعد ، ثم إلى شجرة أخرى .. ثم اختفى ..

لم تكن العاطفة التى بدت فى صوت طاهر هى الحسرة والحزن على ضياع «كوكو» بل الخشية على الطائر المسكين من غوائل الليل إذا أطبق على الكون ، ترى أين يكون منامه ، وهل يجد أكله وشربه ؟ هذا الذى ظل طول عمره يأكل ويشرب من يد سيده ..

وأويت إلى فراشى بعد العشاء فإذا بشيخ ضيف طارق يقدم إلى نافذق ويحيط عليها بوجل ورهبة .. ثم سكن لا ينبض فيه عرق ، لم أتحرك من مكانى ، بل حولت عنه نظرى ، حتى لا أزعجه ، وإذا به بعد قليل يدير

رأسه وينظر إلى من جنب ، هذا المتكبر في الأسر ذليل في الحرية ، وظل نحه الضئيل يستوعب شيئا فشيئا ما تراه عينه المدارة إلى . هل يأمن لى ؟ هل أغدر به ؟ أخذت أحدثه من قلبى وأقول له :

- «كوكو ! لا تخف ، أنت فى دار أمان ، لن نختص بك ، ونحملك على كره صداقة جديدة قد لا ترتاح لها . تريد أن تعود لصاحبك ؟ لوجهه ؟ لصوته ؟ سأخذك إليه الليلة إذا شئت ستبيت معه من جديد تحت سقف واحد ، تخشى أن يطلع نهار لا تلقى فيه على صاحبك تحية الصباح ؟ لا تخف ! تعال قع فى يدى فلن يطول بعد الليلة عذابك !»

قفز كوكو إلى مائدة التواليت ، ولا أدرى عن عمد أم جاءت قفزته عفوا ، لماذا اخترتني أنا وحدى ياكوكو دون بقية الجيران ؟ ما الذى تحسه ؟ هل قدومك فال ؟ أم تراك فهمت ما لم يفهمه غيرك . . وتحرك كوكو حتى وصل إلى حافة المائدة ثم تريت كأنه يقيس مدى ارتفاعه عن الأرض ، وبعده منى ، قد تجمعت روحه كلها فى متقاره ومخالبه ، وانطفأت ألوانه ، وتركت صابرة لا آبه لمرور الزمن ، وإذا به يفل صدره وما تحت جناحيه ، ففهمت أن قد جاءنى الإذن ، وقفزت إلى النافذة وأغلقتها . . تضائل «كوكو» من الرعب وأدرك أنه خدع ، ورأيت نظرتة تنطق باليأس ، ثم أحنى رأسه واستسلم ، لم يستطع معى جدالا ، وكان فى يدى بعد قليل ، وبعد قليل كنت أنا بنفسى فى منزل طاهر .



احمر وجهه قليلا حين دخلت عليه ، ولكن سرعان ما تحادثنا كأنه يعرفنى منذ زمن طويل وأنا أعرفه ، وتهاوت إلينا من الليل أستار ليس

لرقتها مثل ، ستار وراء ستار ، ونحن لا نزال منكشفين لأعين النجوم .
ولما جلست بجواره سألت نفسى : أين شممت من قبل هذا العطر ؟
أتعرف شذى حقول الفول إبان إزهاره ؟ رائحة الخشب الغض حين يشقه
المنشار ؟ رائحة صدور المرضعات ؟ وجاء «تيدى» وألقى تحت أقدامنا
وأغمض عينيه ، لحظة ، لحظة واحدة ، امتلأت أذنى بوسوسة الشيطان ،
ولكنى نظرت إلى عيني طاهر الصافيتين وامتلا قلبى طهرا . . وأحسست
أنى أملك ثروة لا يحلم بها إنسان ، فيها الأمان من الفقر مادمت على قيد
الحياة . .



زارتنى فى دار أمى صاحبة من ذلك الصنف الذى يطوف بالمنازل
وينقل الأحاديث :

- هل سمعت ما يقوله عنك زوجك ؟ يقول إنه طردك لأنك غير
شريفة .

وكانت تنتظر منى أن أنطلق فى السباب وذكر الفضائح ، ولكنى
ابتسمت لها وقلت بهدوء . .

- معه الحق ، كنت غير شريفة طول إقامتى معه . . أما الآن فقد
تبت . . صدقنى !

صورة

صديقي «شوكت» هذا لا أراه إلا لاما ، وكيف أظفر به وهو لا ينقطع
تقلقله واضطرابه . . أبواه يدللانه ويُرهبانه ، وهو يفر منها ليقيم وحده في
حجرة صغيرة على سطح الدار ، يستيقظ مع الشمس فيندس في ثيابه ، ثم
يتدهور على الدرج كأنه نجاسة تركلها أقدام طاهرة ، حتى إذا خرج
للطريق خف خطوه وبدأ تسكعه ، وعندئذ لا مفر من أن نودعه ، وإن
كانت الساعة لا تزال مبكرة - فبهيات للمخيلة أو المنطق أن يفلح في تتبعه
بعد ذلك ولو كنت به خبيرا ، فهو قد يفطر فولا وطعميه ، ويحلى بسبوسة ،
في حى سيدنا الحسين ، أو بيضا مسلوقا ولحما باردا في مطعم بجوار
المحكمة المختلطة ، هو يدخل السينا لينام ، وقد يقضى أكثر الليل ساهرا
في مقعد على شط النيل .

استمع إليه يحدثني ذات يوم :

- إننى أتعلم كثيرا من دراسة معارض المصورين الفوتوغرافيين وأقف



ساعات أمام سكانها المجهولين ، أنفوس وجوهم طويلا ، هذا دأبى منذ زمن بعيد . . . دع عنك مصورى البطاقات الشخصية فعملهم نوع من التأتأة . . . ولا أقصد مصورى الأحياء الإفرنجية فليس بينى وبين معارضهم وشيجة روحية ، فلا أعنى بالأجانب ، أما المصريون الذين يظهرون فيها بزى رسمى أو غير رسمى فأغلب وقفاتهم متكلفة ، على الشفاه ابتسامة حائرة بين فرحة الفوز والاعتذار عن الغرور والإعجاب بالنفس ، هؤلاء أناس لا تعبهم أقدامهم وأيديهم لطول بطالتها . . . أنا أصدقائى فهم زبائن مصورى الأحياء الوطنية ، كنت أعرفهم فيها مضى يشخصون بأبصارهم إلى العدسة ويحملقون فيها كأنما يتوقعون منها مفاجأة . . . أذرعهم متصلة ، وأيديهم حائرة ، فهى إما مستقرة على الركبتين ، أصابعها تارة منفرجة (ولا تدرى لماذا) وتارة مضمومة ، أو ملصقة بأفخاذهم وأصابعها ممدودة كوقفة صاحب الحلة الجديدة أمام الخياط فى أول تجربة . إثبات الود بين الصديقين أن يتصافحا أمام العدسة ، وبعضهم يرفع يده إلى رأسه يحبسك أنت والمصور والعالم كله . . . أما الفتيات فكالنباتات البرية لا تزال بشوكها ، لا تضحك من أحذيتن أو تسريحة شعرهن ، بل انظر إلى العيون تجدد جذلا فطريا وفرحة الطفل بلعبة جديدة ، أما إذا اعتمدت إحداهن برأسها على كفها فوق المائدة ، وتاهت نظرتها ، ومن خلفها ستار عليه رسم زهرية كبيرة أو درج فخم فاعلم أنها بنت مدارس ، ابتليت - والبركة فى القصص الغرامية - بداء الحب

كان ذلك فيما مضى . أما اليوم فقد كثرت بين أصدقائى من يقلد كلارك جيل أو بيتى جريل . . . بعض هؤلاء الناس يشبتون فى أماكنهم لا يتحولون عنها ، يوجهون إليك نفس النظرة بسنين طويلة ، كأنهم قطع متحف ،

وبعضهم - كما في عالم الأحياء - يظهر حيناً ثم يختفى ويحل غيره محله ، وهذا يذكرني بحادثة عجيبة لم أستطع نسيانها إلى اليوم .

وصمت شوكت . وقد تعلمت ألا أستدرجه ، فصبرت حتى واصل الحديث ، فهو بمن لا يطيقون كتمان السر ، ولو كان أمراً يشينه ..

- هو مصتور في ميدان من أهم ميادين القاهرة كل زبائنه من الأغنياء ، لا يتم لهم عرس إلا إذا جاءهم قبل المأذون ، وكأنهم لا يشبتون من معرفة أطفالهم إلا إذا رسمهم لهم .. كنت أسير غير ملق بالي فإذا بشيء يجذبني جذبا .. التفت فسحرتني نظرة نفاذة كأنها تيار كهربائي ، تنطلق من عيني فتاة جميلة ، ارتدت - ولا أدري لماذا ؟ - خمارا أسود . هل يكون تصنع الحزن من بعض الدلال ؟ ومع ذلك هيهات ! فالنظرة تنطق بالصبا التلهف إلى اللذة والمرح والبهجة ، يؤججه جسد زاهر بالحياة ، يسكنه عفريت لعب ، تنموخ على الشفاه ابتسامة كاهتراز أوراق الشجر يداعبها نسيم الغروب ، سرت قليلا ، ثم وجدتني أعود إليها . ماذا تريد مني ؟ وماذا تريد أن تقول ؟ لم أستطع الانفكاك من سحر تلك النظرة ، ومع ذلك أحسست في جسدي بشعور خفي لم أتيه حينذاك ، ولكنه تركني ضيق الصدر ، مكروبا ، مالى وماها ؟ هى فتاة مغرورة تتباهى بجمالها وبصورتها الفخمة ، تريد أن تخلد فيها خيال مرآتها الفاني ، ولكن لا . إنها ليست نظرة موجهة إلى نفسها ، بل هى موجهة إلى غيرها ، إلى إنسان ، أيا كان .

أصبحت أقصدها وأقف عندها ولا أمر في ذلك الطريق إلا سلمت عليها وسألتها عن أخبارها ، إن نشوتها تبرد القلب ، وسعادة الصبا تقلم

الحسد وإن رغم أنفه ، وتطفىء مرارة الحية ، وتقلب حسرة الشيخ رضا
وذكريات وأحلاما ..

ومرت أيام وأنا أتوقع أن أراها - كما رأيت كثيرات غيرها من زبائن
هذا المصور - مستتلة على ذراع عروسها في ثوب أبيض له ذيل طويل ،
وحولها تلال من الزهور ، انتظرت ظهور هذه الصورة أياما بعد أيام ولكن
سدى .. وظلت نظرتها تثب من وراء الألواح الزجاجية وتختلط بالمارة كأنها
تريد أن تثبت بإنسان من الناس .

ثم اختفت .

وكرت الأسابيع والشهور فإذا بي أجدها من جديد ، مرحبا ! مرحبا !
ولكن ما هذا ؟ خلعت خمارها فبدا لها شعر أسود فاحم في أجمل زينة ،
وارتدت ثوبا وسطا بين ثياب السهرة وثياب النهار ، حول عنقها عقد تعتمد
المصور أن يظلل واسطته لئلا تبينها العين ، بل تدرك أنها ثاوية بين
نهديه .. ويلتصق بأذنها قرط على شكل زهرة . إنها اليوم لا تنظر إلى
المارة ، بل انصرفت عنهم قليلا ، فهي تريد ولا تريد أن تقع العين على
العين ، وكفاهما أذنها التي مالت بها قليلا نحونا كأنها تريد هذه المرة أن
تسمع ما نقوله عنها ، لقد لوحتها الشمس ، فقد كنا في نهاية الصيف ،
وكانها تسر إليك : «إنني كنت على الشاطئ ثم عدت للقاهرة» . تطلعت
إلى الصورة من اليمين ومن اليسار لعلني أظفر بنظراتها التي سحرتني فلم
أفلح . ماذا دهاك ؟ ولم تشيحين بوجهك ؟

وثبتت الصورة مكانها زمنا طويلا ، من حولها جيرانها وعالم المارة
وموكب الحياة يدور ويدور كأنه رحي طاحون .

وتتابع الفصول ..

استدارت وارادت ثوب سهرة يكشف عن واسطة العقد ومثواها
معا ، وتركت شعرها ينسدل على كتفها وواجهتها من جديد بنظرة فيها تحد
واعتماد وكبرياء وشموخ ، العين مزججة بالكحل ، والشفة أرجوانية ،
بل سوداء ، وكأنها ندبة . . لما رأيتها تلك المرة أدركت الشعور الذى انتابنى
حين لقيتها أول ما لقيتها . . يا لله لهذا الفم وتلك الثنايا . . فم واسع
عريض كأنه فوهة بئر مهجور . . وشفتان غليظتان تكشفان عن ثنايا
مفلجة ، أى شىء لا يقدر عليه هذا الفم المتعطش من لثم وتقبيل وما
يتلوها من ثورات عنيفة لا أزيدك بها علما . شهوة عارمة جامحة ، مقيدة
بأغلال .

تذكرت ، لقد شعر جسدى حين لقيتها أول مرة بذلك الإحساس
الذى كان يعتربنى وأنا صبي-مراهق ، عندما كنت أمر على بعض الأزقة ،
فأبصر بائعات الهوى يعرضن أجسادهن للناس . كان يدفعنى الشوق
ورغبة الإفضاء ، والغوص فى لجة الحياة ، وتصدى دمامة الفساد ببخرها
ونتتها وقروحها ، لقد كان القبح نجسا جاثما على فم هذه الفتاة ، قبح يثير
فى النفس اشمئزازاها ، ويهب عليها منه ريح حارة كالسموم ، عندئذ
عزمت على الفرار منها ، وهجرها ، وعلى أن لا أعود إليها .



ومرت أيام فى أثرها أيام ، ثم لقيت صديقى شوكت مصادفة على قهوة
فى شارع عماد الدين ، وأمامه حبات قليلة من الفستق هى كل ما كسبه

بثلاثين قرشا دفعها في مراهنه بائع صعيدى مكار ، وقال لى :

- إننى لا أخسر إلا إذا كنت مضطرب الأعصاب ، أو اضطبحت بوجه كتيب .. ولا تأس على ، فقد كسبت منه مرة أقة كاملة بقرش واحد ، فخذ اثنتين ، ودع لى اثنتين ، وأنا أحب القسمة العادلة وأرجوك ألا تلح على أن أسير معك فليست الليلة خالى البال ، لقد كنت أكذب عليك ، وإنى أخبرك الآن أننى عدت إليها ، أكون للقبح سحره أيضا لأنه يجعلنا - إذا ما انقضى - أكثر قدرة على تذوق الجمال ؟ أم لعل القبح هو مبدأ الخليفة التى فرض عليها أن ترقى منه - بمجهودها - قليلا قليلا حتى تدرك الجمال ، فسنخر القبح نوع من الحنين إلى الماضى ؟

ولكن حالى مع هذه الفتاة على خلاف ذلك . فلا يحنى وجهها ، إن الذى يحنى هو روحها ، إنها لا تزال مكانها ، تمر أمامها هذه الجموع الغفيرة وليس فيها قلب واحد فهم آلامها ورنى لها . إننى ألتص عذابها وليالها الساهرة ، وابتسامتها المتكلفة تتظاهر فيها بالسروور وقليها منغوم ، هى يد مملودة لا تجد من يمد لها يدا ، صدقنى إننى أمر عليها فأجد نور عينيها ينطفىء يوما بعد يوم كاحتضار المشكاة ، ستقول : إن الصور تشحب عادة من طول تعرضها لأشعة الشمس . ولكن اذهب بنفسك شاهدا تجدها وحدها دون بقية الصور قد خيبت عليها ظلال كالعنكبوت ، بل أكاد ألمح على وجهها خطين متعارضين كأنهما لطمتان ، أو علامة الإلغاء على مسألة مغلوطة ، ستقول أيضا : إن هذا من أثر ثنى ورق الصورة لقدم عهدا بالمعرض . ولكن ثنى أن قلبى صادق فى شعوره ، بل إننى أكاد أجزم باقترابها من كارثة نازلة ولو نعبت إلى رجال الإصعاف وقلت لهم

واسرعوا ! تعالوا أدركوا فتاة دمهنا خطر شديد ، فقد أصيب قلبها بجرح
بليغ وتوشك أن تتحطم ، فمساكم تنقذونها كما تنقذون غيرها ، لسخروا
منى وعدوني مخبولا .. وانصرفوا عني أيضا فليس للخيل عندهم دواء .

وكانت قصة رمان صديقي قد ذاعت ، فتألب علينا بائعو السميط
والفستق واليانصيب وماسحو الأحذية والشحاذون وعازفو الكمان ،
فانقطع الحديث ..

و ذات ليلة من ليالى الشتاء الماضى عدت إلى دارى متأخرا ، فوجدت
شوكت بالباب ينتظرنى ، لا يآبه للبرد ولا للمطر ، ولم يكدرانى حتى
صرخ فى قائلا :

- أيرن كنت ؟ .. لقد بحثت عنك طويلا ، إننى أريدك منى هذه
الليلة ، لا تتركنى ..

وهو مخمور ، لسانه ثقيل ، وعيناه محمرتان ..

- لقد رأيتها اليوم فى ذهابى للقهوة ، وأقسم لك أن نظراتها أصبحت
أشد لمعانا كأنها نصل خنجر .. وارتسم فيها الغل والغيط والقنوط والألم
معا .. تتلفت إلى المارة ، وإلى جيرانها بنظرة ملؤها السخط والاحتقار .
انقضت الظلال ، وزال الخطان وتبيأت لأمر ، قد أطبقت أجفانها قليلا
وضمت شفيتها وبدأ على خديها غضون عميقة .. ثم عدت بعد ساعتين
فألفيت أمام المعرض زحاما شديدا ، والزجاج مهشما متناثرا ، والصور
مزقة تحت الأقدام فى الوحل .. بحثت بينها عن صورتها فلم أجدها ..
قال لى بائع الصحف إنه سمع صوت تكسر الزجاج كأنما أصابته

رصاصه ، ولم ير أحد شيئا ، وقالوا لعله محمور عرييد قذفه بـزجاجة فارغة .. ولكن هذا كلام لا يدخل عقل .. إن هاتفنا يهتف بـ أن هذه الفتاة قد انتهت .. سقطت أو انتحرت وأن قلبها قد حطم أغلال وانفجر ..

(مجلة «الكاتب المصري» ، العدد الرابع ، يناير ١٩٤٦ ، ص ٥٧٧ وما بعدها)

تنوعت الأسباب

إننى شغوف باتباع أخبار البخلاء ، فليس كمثلهم جنس من الناس ،
يشير الاشتمزاز والابتسام في وقت واحد .

ويقال «لعل أبلغ ما أعسلُّك ما شفاكا» وهكذا أنا ، شفيت من هذا
الهوس منذ أن سكنت دارنا هذه في حارة الشيخ البغال ، وتعرفت إلى
جارتنا الست زليخة ، وإن كان الحق أنها هي التي سعت إلينا وطلبت
معرفتنا ، ولم تكتم عنا أن سر مودتها لنا وترحيبها بنا راجع إلى أننا نملك -
دون بقية الجيران - جهاز راديو . . وقد علمت فيما بعد أنها كانت تقضى
أمسياتها بالمناوبة عند الجيران ، راديو أولا راديو ، توفيراً لنفقات الإضاءة
في دارها .

وأسارع بإخبارك أن متزها لا ينار بالكهرباء ، بل بمصباح بترول صغير
«نمرة خمسة» ، هو كل ما في دارها الكبير من وسائل الإضاءة ، اللهم إلا إذا

عددت من بينها تلك القذاحة العجيبة التي تحملها معها أينما ذهبت وتحرص عليها أشد الحرص ..

ذلك أن الست زليخة تدخن السجائر ، ولكنها لا تشتريها - بكيفية خلق الله - جاهزة ، بل تشتري التبغ ، وتلفه في سجائر عجيبة الشكل ، تذكرني بالمولوية في حلبة الرقص ، فهي منبعجة في طرف ، هزيلة في طرف آخر ، وقد لاحظتها مرارا وهي تأب أن ترمى عقب السيجارة إلا إذا أتت عليه ولو حرق أصابعها . ورغم احتجاجها بأن المسألة ليست مسألة توفير بل مسألة مزاج فلم يكن يخفى أنها تخلص للسجائر اللف لفضيلتين : الأولى أنها عملة صعبة التداول ، فليس كل الناس يحسنون لفها ، ومن ذا الذي يرضى أن يدخن سيجارة مبللة بلعابها ؟ والثانية أن عقب السيجارة اللف ، كما تصنعه ، لا يحوى من الدخان إلا «تشيق» ، فهي إذا رمت العقب وثقت أنها لا تضحي بشيء ، ألحظها وهي ترفع أصابعها من منفضة السجائر فلا أشاهد تحتها إلا صاروخا مسلولا من دخان أسود أزرق .. وكان إعجابها بالتبغ الملفوف عذرها في التعفف عن السجائر التي تعرضها عليها .. وهكذا احتفظ كل من الطرفين - والحمد لله - بكرامته وسجائره .

ولا تنتظر من الست زليخة أن تشعل سجائرها بالكبريت ، فكبرت هذه الأيام يضح منه عود ويخيب ثلاثة ، وهي تقول إن علب الكبريت «معفرة» ، فكل استهلاك ذو وب تلحظه العين ولا يمكن دفعه هو عندها من عمل شيطان خبيث .. وهي كذلك لا تحب صوت ارتجاج آخر عود في العلبة ينذر بضرورة شراء علبة جديدة ، والكبريت يكرها أيضا لأن لحظة استعماله هي بعينها لحظة فثاته ..

أليس من السلامة والحكمة إذن أن تستعمل القداحة ؟ لها شكل
خرطوشة فارغة ، فلا عجب إذا هوت بكفها عليها مرتين أو ثلاثا أن
يتفجر منها لهيب أهوج عال ، لونه كلون الدم ، تحوطه غلالة من دخان
كثيف . . وقد حذرتها مرارا من أخطار هذه القداحة غير المأمونة ، وأنها قد
تحرق شعرها ورموشها ، أو تنشب نارها في ملابسها ، فكانت تقول إنها
تنفعها أيضا في إنارة بير السلم حين تعود لدارها .

تأتى إلينا الست زليخة قبل الغروب وتترى على الكتبة كأنها تقول :

- أنا هنا حتى نهاية البرامج !

وقد طمأنئنا منذ أول يوم أنها ليست كيفة قهوة . . وإن كان لا بأس
بفنجان واحد ، فهذا الحد الأدنى عندنا للإكرام هوفى ملتها واعتقادها الحد
الأقصى ، وأكدت لنا أن أقل عشاء يضرها ، ولا يتطبق هذا القول على
الفاكهة ، إذا كان لديها شيء منها ولم نخفه عنها .

ولم أرها إلا على رأسها منديل أزرق باهت ، تحتها شعر أشعث أما
ملابسها الخارجية فيتمثل فيها نجاح عظيم في التوفيق بين غايتين
متنافرتين : النظافة ، في الحدود المعقولة طبعاً ، وصيانة القماش من
التلف لقرط الغسيل ، أما ملابسها الداخلية فقد سمعت من الجيران
الذين تطل أسطحهم وعلى دارها أنها . . كنانة ! . .

والست زليخة تسكن بمفردها ، وحدها ، ليس معها جنس إنسان أو
حيوان ، في دار كبيرة من بيوت زمان . . من الباب إلى حجرة نومها في
الطابق الأول طريق مرسوم كالمذق وسط أراضى الحيطان عند الجفاف ،
على جانبيه تيه متروك لنفسه ، تفعل به الأقدار والفيضان ما تشاء .

لم أرقط في يدها نقدا ، ولم أسمعها تذكر أنها اشترت شيئا. ولم تتطلب
فراصة الست زليخة وقتا طويلا لدراسة معيشتنا ونواحي إسرافنا ، فهي لا
تبرحنا كل ليلة الا بعد أن تسألني أن أجمع لها بعض الصحف القديمة
المبعثرة في منزلنا هنا وهناك وينتهي أجلها في صفيحة القمامة ، فكانت إذا
أخذت الصحيفة فردتها وأعادت تطييقها بعناية فبدت في يدها شيئا قيِّما
رُدت له كرامته وأحسست في قلبي بحسرة لطيرانه من يدي .

تقول ورق الصحف ينفع في المطبخ ، وللدواليب ، وتسد به
الخروق ، ويرش بالبتروول وتلف به ملابس الشتاء لحفظها في الصيف ،
وهو ينفع عند الشراء من الباعة السريحة فهو أخف من ورقهم الثقيل في
الميزان ، وليس كمثله شيء يقى الصدر من البرد ، دع عنك سند المائدة
العرجاء ، والنافذة التي ضاع «شكلكها» وتنظيف الزجاج ، وتلميع
المرايا ، ومسح الحذاء .

ورفضت الست زليخة بطبيعة الحال أن تضيف أنه إذا تكوم يباع بالآلة
أو يقايض عليه ، ولكنها نظرت إلى نظرة ضاحكة وقالت :

- وينفع أيضا في أشياء أخرى ..

لم أفهم وقتئذ ماذا تعنيه وحاشا لله أن تكون الست زليخة الطاهرة
المتدينة ، قد تفرنجت في آخر الزمان ..

ومرت أيام فإذا بي أكتشف أن حياة الست زليخة تنطوي على مأساة
مؤلة . ؟ إنها تملك بضعة أفدنة في مديرية البحيرة يطمع فيها بعض أقاربها

وهم من الأشقياء الجفأة ، وقد هذبوها بالقتل أكثر من مرة .

ولما توثقت بيننا الصلة واستلطفت حديثها واستخففت دمعها تجرأت
وعرضت عليها فكرة خيّل إلى أنها الحل السعيد الموفق .

قلت لها ذات يوم :

- لماذا لا تتزوجين فتجدين بذلك رجلا يحرسك ويريحك من
مخاوفك ؟

ولماذا لا تتزوج ؟ إنها رغم قربها - سواء من الأمام أو من الخلف - من
تمام الحلقة الخامسة من العمر ، ورغم إصابة عينيها برمد يسيّل منها
الدموع مدرارا ، في الليل والنهار ، فإن ثيابها تخفى جسدا لا يزال يحتفظ
بشيء من البضاضة والجاذبية . . هو هكذا كما يبدو على الأقل من ملابسها
التي ضاقت عليها من الصدر والعجز . .

اعتدلت الست زليخة في جلستها واعترفت لنا في شيء من الزهو
والافتخار ، وإن كان فمها يتسم بازدياء ، أن العريس حاضر لديها ،
تحت يدها ، وأنه يلحف عليها بالرجاء وهي تتأني .

- ولماذا يا ست زليخة ؟

- حكايته كاهم على القلب . .

هو من أقربائها البعيدين ، فزع القاهرة لا فرع البلد ، ولكنها لا تراه
إلا كل حين ومين - اللهم إلا إذا احتاجت إليه ليقضى لها حاجة في دواوين
الحكومة ، فيأتى لها مهرولا ، يسعده أن يخدمها ، فالقراية عنده صلة حنان
ومودة ، فما بالك بالولاياء ؟ لا يخيب رجاءها ، وينسى المرات العديدة لتي

يطرق فيها بابها فلا يجدها في دارها ، إن صدقا وإن كذبا ، وإذا دخل وقت الغداء لم يظفر إلا بفنجان قهوة . . بن خفيف ! . .

لم تسأله ماذا يأكل ومن يغسل له ملابسه ، والله وحده يعلم كيف يعيش ، هو أرملة عتيق ، يعيش بمفرده في حجرة صغيرة ولولا رافة بعض جاراته لأكله العت والبق . له بنت مات عنها زوجها وخلف لها زريبة من العيال ، فيهم من هوى المدارس الثانوية ، وفيهم من هوى المدارس الابتدائية ، وفيهم من هوى رياض الأطفال ، ومنهم من لم ينزل عن الكتف ، وآخر لا يعلم إلا الله وحده جنسه وحظه . . فكيف يصرف عليهم وهو موظف صغير مرتبه لا يزيد عن عشرة جنيهات شهريا .

ترك حجرته وأقام في منزل ابنته وأصبح نصيبه في الحياة نصيب أحد أيتامها أو أقل قليلا .

لم يبد عليه في يوم أنه غاضب من الست زليخة ، لأنها وهى قريته الموسرة لاتحن عليه بين حين وآخر بمبلغ صغير يقيم أود أسرته الجديدة إذ يخشى لو غضبت أن تقطعه ، وفي قلبه أمل متجدد أن يفتح الله عينيه ويديها فترى كما يرى هو أنها لو تبادلا حمل المشاكل لارتاح باله وبالهاء سيجد عندها بعض ما يبيل به ريق أحفاده ، وستجد عنده الأمن الذى نقصها ، وإن قلبه والله ليرتحف خشية عليها من تهديد أقربائها فرع لبلد ، ولو ضمن لها السلامة مع بقائه بعيدا عنها فقيرا لما تقدم لها بطلب الزواج منها . : نوازعه خليط من طيبة وطمع ، ورغبة مكتومة فى أن يخلع ثياب الذل ليلبس بدلها ثوب البطل ، ووراء كل هذه النوازع ذلك الداء القديم الخبيث الذى لم تحل منه الحياة فى عصر من العصور ! داء تملق الفقراء للأغنياء !

وسخسخت الست زليخة من الضحك واستمرت تقول :

- لقد أكد لي في بدء المفاوضات أنه سيكون لي نعم الخادم الأمين
الوفى ، والحارس الذى لا يغمض له جفن ، وسينحيطنى بعنايته ومحبتة ،
وسيكون طوع بئانى ورهن إشارى ، الأمر أمرى والكلمة كلمتى .

ولكنه لم يخف عنى - وهذا هو مربط الفرس !- أنه غارق فى الديون
لأذنيه ، ومرتبته مرهون لشهور عديدة قادمة ، وفهمت أول الأمر أنه يريد
منى أن أتكفل أنا وحدى دونه بمصاريف البيت ، من كل وشرب ، ولو
سكت عند هذا الحد لقبلت عذره ، وقلت الأكلة التى تكفى واحدا تكفى
اثنين ، ولابد للدين من أن ينقضى فى يوم من الأيام ، ولكن إذا به
يتكشف عن حماقة بالغة فيطلب منى - إذا تزوجنا - أن أدفع له أيضا ستة
جنيهات شهريا - مصروف يد - هكذا قوله ، ولم يشأ أن يعترف أنها
ستضيع على أولاد ابنته ، كأننى أنا التى مكلفة بإعالة أولاد المرحوم
زوجها . . شويش يا عمر ! وهل جنتت حتى أقبل شرطه ؟ ستة جنيهات فى
الشهر الواحد ، هذا إيراد عزبة ، تنزل له من السماء . . فمالى أنا ولهذا
و«أشيتى» رضيا والحمد لله . .



وجاءتنا الست زليخة ذات مساء وهى مضطربة مصفرة الوجه ،
محولة اللسان ، لا تسكت إلا لتبلغ ريقها ، لقد أسرع إليها فى الصباح
مستأجر أطيائها ينذرها بأن أقاربها - فرع البلد - قد أثمروا بها وأنهم يعدون
العدة لتنفيذ تهديدهم لها بالقتل ، ولكنها رغم اضطرابها تصر على أن هذا
الكلام فارغ طالما أكلت منه وشريت ، وذكرنى حديثها بالسيئات فى الظلام

يغنى أو يصفر ليطرد عنه الخوف ، فرثيت لها وأشفقت عليها وأخذت أحاورها وأدوارها حتى قامت من دارنا وهي أكثر اقتناعا بضرورة الزواج من قريباها فرع القاهرة .



وبعد أسبوع تزوجت من شعيب أفندى وعرفتاه به ، رجل يحمل كرشا كقِدر العرقسوس ، لعله هو الذى يزحلق طربوشه إلى مؤخرة رأسه لحفظ التوازن ، بنظونه مشجر كأنما يجوس أبدا خلال أرض موجلة ، عيناه صابرتان ضاحكتان ، لا ينقطع أملهما في رحمة الله لا رحمة الناس .. وأصبحا نراه داخلا خارجا في أوقات معلومة ..

لم تغير الست زليخة شيئا من عاداتها ولا من زيتتها ، ولكنى رأيت سبل دموعها يخف قليلا .. ولحت في نظرتها شيئا من رضى وهدوء ، وشعب ورى ، واللقمة في يد اليتيم عجة ! ..

كان الزواج في اليوم العاشر من الشهر ، ففي أول الشهر التالى قدمت له أربعة جنيهاً ، فثار شعيب أفندى واحتج بشدة لأن الاتفاق كان على ستة جنيهاً في أول كل شهر ، وهذا هو الشهر قد حل فلا بد من أن يقبض ستة جنيهاً كاملة ..

أجابته الست زليخة بهدوء شديد أن الزواج تم في اليوم العاشر من الشهر الماضى ، وهذا شيء لا سبيل إلى نكرانه ، فهو خير ، إما يأخذ الجنيهاً الأربعة ، وإما ينتظر إلى اليوم العاشر من الشهر ليستحق الجنيهاً الستة ..

صرخ شعيب أفندى :

- هو أنا مجوز باليومية ؟!

أجابته الست زليخة بهدوء أشد :

- اللى أوله شرط آخره نور ، وآدى حكمته ، وآدى السها وآدى

الأرض ..

أخذ شعيب أفندى الجنيهات الأربعة صاغرا وفوّض أمره لله .

وتوالت الأيام ومضى شهر وآخر واقترب ثالث ، فلاحظت على

الست زليخة اضطراباً وقلقاً وحيرة وأصبحت جلستها على «الكنبة» لا

تستقر على حال ، وجهها شاحب ، وعيناها زائغتان تقول :

- عجيبة ! أمى ضريبة مفروضة ؟ أهو معلوم ثابت عمرت الدنيا أم

خربت ؟ أليس الوفاء شهراً وثانياً وثالثاً ، جيلاً يستوجب ، لا أقول

الرحمة ! - بل أقول النسيان ؟ شهر ورا شهر ، هاقى هاقى ، ما جلتوش

حاجة غير هاقى ؟ ده سارعنى ومطلع على جتنى البلا ، واخلانى مش عارفه

راسى من رجلى ..

أقول لها :

- ياست زليخة ! أنت رضيت بهذا من أول الأمر ..

فتجيب :

-آمنا وصدقنا ، لكن لم أطالبه بشيء من مصروف البيت ، صحيح

غسيله ومكوته فى بيت بنته ، لكنه آكل شارب عندى ، وما شاء الله طفته

رغيفين .. وان ماكانش فيه لحمه يزعل ويؤوّز ، والله لو كنت على تل

لاختل ..

وفي مطلع الشهر التالى تنسب بينها عراك شديد دام أياما وانتهى بأن
دفعت المعلوم . . ولكنها حين جاء الشهر التالى رفضت أن تدفع إليه ملياً
واحداً ، لا ستة جنيهات ولا أربعة ، رفضت بحجة أن مستأجر أطيانها لم
يسدد المطلوب منه ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فتركها شعيب
أفندى - وهو يعلم أنها كاذبة فى ادعاء الإفلاس - وأرسل إليها ورقة
الطلاق ، والحمد لله أن كان أهون رسم مالى مقرر فى مصر هو رسم
الطلاق ، وهذه نعمة كبرى عسى أن لا يلتفت إليها وزير المالية . .



ومرت أيام نسينا فيها شعيب أفندى ونسينا التهديد . وجاءتنا الست
زليخة ذات ليلة تمضى عندنا السهرة كعادتها وكانت فشتها عاتمة ، كثيرة
الضحك ، بشوشة الوجه ، كأنما تخلصت من عبء ثقل . . وانتهت
السهرة وخرجت تحت إبطها لفة من ورق الصحف ، وسارت فى الحارة إلى
أن وصلت لباب دارها ، وأخرجت المفتاح وأدبرته فى القفل ، سمعها
بعض الجيران تقول :

- بسم الله الرحمن الرحيم . . ماذا جرى للقفل ، هل لعب فيه
العيال . . يقطعهم . .

وانفتح الباب وأغلقتة وراءها وكانت هذه آخر مرة رؤيت فيها بين
الأحياء . .



فاحت الراححة بعد ثلاثة أيام ، وكسر الباب فإذا بها مربوطة فى عمود
السريـر بجبال غليظة ، وقد حُشِي فمها بمنديل ، وطُعن جسدها خـمسين

طُعنه بسكين خائن النصل كان لا يزال ملقى تحت أقدامها . . الحجرة مقلوبة . . والحشيات مفككة قد تبعثر قطنها ، والدولاب منكفىء على الأرض ، وعلى حافة النافذة زجاجة خمر شربها القتلة لا أدري قبل فعلتهم أم بعدها .

ووصل وكيل النيابة ودخلت معه ، ومعت شعيب أفندي من الدخول لأنه كان يبكي بدموع غزيرة . . وتجنبت النظر إلى جثتها المتورة ، وأخذ المحقق يبحث هنا وهناك ثم رفع رأسه - لا عن عمد بل مصادفة - إلى السقف ، فوقعت نظرته على عرق من الخشب مفكك ، ورأى - ولا أدري لماذا - أن محضر التحقيق لا يتم إلا إذا أثبت فيه معانيته لهذا العرق من الخشب ، وحيء بسلم وصعد عليه فإذا بين السقف والعرق فجوة بها لفافات من ورق الصحف في حجم البنكنوت ، إحداها ملأى بورق الجنيه ، والثانية بورق الخمسة الجنيهات ، والثالثة بورق العشرة جنيهات .

ونحى إلى وأنا أغادر الحجرة أن رأسها قد استدار نحوى وأن نظرتها تلاحقنى بابتسامة ملأى بالسخرية والانتصار ، وأن شفيتها تتحركان وتقول لى :

- هل فهمت الآن فيم ينفع أيضا ورق الصحف القديمة ! -

وراء الستار

من نعم الله - سبحانه - عليه حين ابتلاه بهوس المسرح والسينما أن ابتلاه في الوقت نفسه بضيق ذات اليد ، فهو في المسرح ينحط في مقعد خلفي فلا يضايقه صوت الملقن ولا الطلاء البشع الذي يكسو وجوه الممثلين والممثلات ، وإذا دخل السينما هرول شوطاً طويلاً ، ثم جلس في مقعد يشعر فيه بأنه يشارك أبطال الفلم حياتهم : همسهم له وحده ، وابتسامتهم تحية يخصصونه دون الحاضرين بها .

وهو أيضاً مشغوف بالمسارح الاستعراضية ، إذ يجد في موسيقاها وتهريجها وراقصاتها أشباه العاريات نشوة لروحه المتعطشة للمرح .

ودخل أحد هذه المسارح ذات مساء وهو هامد الجسم متعب الروح تدل نظرته المنطفئة على الهوة الكبيرة بين آماله وأوجاعه ، وقارب البرنامج نهايته وعزفت الموسيقى لحناً معروفاً ، ثم ارتفع الستار عن فتاة شقراء ، لم تزدها صيغة الشعر إلا قبجاً يغمر النفس ، شاهد من قبل كثيرات من

أمثالها ، لا يجد في تبذلن أقل متعة ، بل هو يرثى من قلبه كل الرثاء لهذا الصنف الجديد من الرقيق الأبيض : شموخهن ذلة ، ومرجهن إعياء ، وابتسامتهن متاع ..

وكاد يحوّل بصره عن الراقصة ، فحركاتها مفتعلة ، وقفزاتها نكراء ، ولا فتنة في ثوبها الفضافاض الرخيص ، الذى شقه من أمام مقص عابث فكشف عن ساقين في اصفرار جث الموق ، يموج عليهما النور والظلال .. وضحك في سره إشفاقاً عليها وهو يقول «تتعب نفسها فى لاشىء !» وفجأة أزاحت الستار الجانبى يد يلمع فيها خاتم ، وخرج من ورائه شاب طويل القامة ، ممشوق القد ، هو صفحة مزّقت من (ألبوم) الخياطين ، بذلته السوداء ذات الذيل قد ركبها على جسمه كواء صبور ، وربطة عنقه البيضاء قالب من المرمر ، والسلسلة الفضية المدلاة إلى جيب سرواله قياست بالمليمتر .. ولولا خط الفرق الناصع كأنه مرسوم بالمسطرة لما اختلف شعره في لونه ولمعانه وتماسكه عن حذائه المصقول .

وقف الشاب لحظة وقد رفع كتفيه ، وقطب حاجبيه ، يرمق الفتاة كما يرمق الصقر الحمامة ، وزادت الراقصة حركاتها واضطرابها وأخذت تذرع المسرح جيئة وذهاباً ، ثم قطعت الموسيقى دقة عالية من الطبله الكبيرة فانقض على فريسته وطوقها بذراعيها ، فجفلت منه ، فلاحقها وأطبق عليها من جديد ، وخرست الطبله وأرتفعت أصوات الكمان بلحن بطيء ناعم فإذا به يُسِيرُها إلى الأمام وإلى الخلف وهى خاضعة بين يديه وإن كان الغضب قد كسا وجهها . ولكن على من ؟ يا الله ! ما هذه الرجولة ! وما هذا السلطان ! استيقظ صاحبنا من سباته وامتدت رقبته قليلا ، وجه هذا

الراقص وجه صارم ، وشفته مطبقتان ، وعينه قاسيتان ، ولمساته رغم نعومتها تنبئ بأنه اعتاد أن يأمر فيطاع ، وانفلتت منه الفتاة مُعرضة عنه ، فلم يبال ، وانصرف عنها ودار على نفسه مختالاً وقد ثنى ذراعيه وراء ظهره ، كهذه الديكة المُركَّبة على المداخن حين تضربها الريح . ثم اقترب منها وجذبها إليه جذبة لو كان عندها بقية من الكرامة لصفعته من أجلها على وجهه ، وتمتم صاحبنا يقول «هكذا المرأة حينما تحب» . شدّها ورفع جسمها على كفه فاستسلمت كأنما ترقد على فراش وثير ، أما ساقها المدلاة فهي بعض الدلال ، وأخذ يدور بها . هل يريد أن يُدوّخها أيضاً ؟ ثم أنزلها فجأة إلى الأرض فلم تترنح الماكرة أو تغمض عينها هنيئة ليرتد إليها بصرها من زوغانه ، بل هبطت في خفة الريشة وعلى وجهها ابتسامة النصر واللذة . هذا أول الرضا والصلح .

ويلع صاحبنا ريقه وتحرك في مقعده قليلا ، هو سعيد لأنه وجد في هذا الراقص خير تعبير عن عواطفه وعن آرائه في المرأة ، هي حيوان لا يخضع إلا للسيطرة ، ولا يؤخذ إلا بالعنف كما كانت تؤخذ جداتها من ساكنات الغابات ، ولهذا فإنه حين يتعرض للفتيات يقابلهن برأس شامخ ووجه متجهم ، وإذا ظلت حياته إلى اليوم خالية من الظفر في معارك الحب فيكفيه رضا أنه لم يذل لامرأة . حقاً ، إنه جرى وراء بعضهن وفي قلبه لهفة وتضرع ، وعلى لسانه ألف استجداء ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا من قبيل التجربة أو التسلية ، وأما ارتداده خائباً كل مرة فشيء يحمد الله من أجله لأنه يحفظ عليه كرامته . .

وأنت أوتار الكمان أنينا رقيقاً سيالاً ، فإذا بجسم الفتاة يكاد يلتصق بجسم الفتى وذقتها بذقنه ، والتقت ذراعه كالأفعى حول وسطها ، وسمت

كفه إلى ما بين نهديهما وخيل للناظرين أنها نسيا العالم والمسرح ومن فيه . .
نعم ، إن هذا هو الامتزاج والحب الذى من أجله وحده خُلِقَ
الرجل ، ففسى صاحبنا اراءه ومبادئه وسرح ذهنه ، فإذا به يرى نفسه بين
يدى امرأة طيبة القلب ، رقيقة اللمسة ، رقيقة الإشارة ، ناعمة
الصوت ، تلفه كما تلف أغصان الشجر إنساناً ضالاً فى حمارة القيط . من
أنت ؟ وأين أنت ؟ أياً تكونين ، وأنى تكونين ؟ فأنا أنتظرِكَ ، وسأجلس
بين يديكَ أعترف بأن كبريائى جراح أخفيها ، وأن رأسى لم يشمخ إلا لأنه
لم يجد صدرأ يستند إليه ، ولو كشفَ عن قلبى لوجدت معيناً من الحب
والوفاء لا ينضب .

ونسى صاحبنا حكمه على الراقصة بأنها قبيحة المنظر مبتذلة ، ورضى
بأن يرى فيها فتاته المنتظرة ، ولكن فتاته سترتدى ثوباً لم يعبث فيه المقص ،
ولكنها ستنسيه الراقصة فى رشاقته ودلالها ، وتقلها السريع بين الغضب
الكاذب والرضا الجميل . . ولكن هيهات ! أنى له كل هذا ، إنه فقى
خجول ، منطو على نفسه ، بل هو مخلوق عجيب ، كأنما يتكلم بذهنه
الثرثار ، ويفكر بلسانه الأخرس ، وشاء المولى ألا يجود عليه كما جاد على
هذا الراقص بالوسامة والرشاقة وقوة الإرادة ، واختلطت فى قلبه عاطفتان
متناقضتان : إعجاب بالراقص وكره له ، وندم على مجيئه للمسرح ، وود
لو أنه كان قد ذهب إلى السينما ، فهى بلسم النفوس الحزينة التى تشتكى
الوحدة .

وبدأت الموسيقى تخف شيئاً فشيئاً وأقدامهما تتأقّل معها ، حتى انتهى
اللحن وهما على وشك أن يتبادلا قبلة خاطفة ، ومالت الفتاة نحو الأرض

وثنت إحدى ركبتيها لتحى الجمهور ، أما الفتى فقد ظل ممسكاً يدها ،
وحنى رأسه قليلا ثم رفعه فجأة وهو يبتسم . . وأسدل الستار . .



خرج صاحبنا يتنزه كعادته فى عصر اليوم التالى ، وسار وحده فى
الطرقات متمهلا وهو مُنكس الرأس ، وفى قلبه إيمان خفى بالمعجزات ،
ومرت به فتاة وثانية وثالثة ، ولكن لم تحس به واحدة منهن .

ووقف أمام واجهة متجر يعلن عن ورود نوع من الجوارب رخيص
الثلث ، فدمس يده فى جيبيه ، وعدّ نقوده ، وتوكل على الله ودخل ، ولم يكده
يرين البائعين حتى وقعت نظرتهم فى قسم المنسوجات على اثنين من الزبائن
جالسين وجها لوجه فى مقعدين أمام البائع : سيدة عجوز أطبقت يداها
على عطفة قديمة كأنها تخشى أن تُختطف منها ، وعلى رأسها قبعة من القش
الأسود اللامع على شكل خوذة ، وبين يديها شاب أصلع محنى الظهر ،
مصفر الوجه ، كسير النظرة ، شاحب الجفن ، أصابعه الطويلة النحيلة
الناتئة العظام فيها وجل الكلاب الضالة ، قال صاحبنا لنفسه : أين رأيت
هذا الوجه ؟ أين ؟ أين ؟ وفجأة تذكر ، هذا هو الراقص البديع بعينه .
ولكن أهذا ممكن لم تكن لمعة العين إلا من الكحل الأزرق ، والشعر الأسود
مستعار ، وبهاء الوجه طلاء ، والخاتم الماس بيرو .

وقف صاحبنا ذاهلا برهة ، ثم اقترب منها وجعل ينظر إلى الأقمشة
المعروضة وهو يسارقها النظر والسمع فإذا بها تقول له بصوت تخالطه
موسيقى الربو :

- لا تتعجل ، ولنحسب حسابنا ، فالقمماش غال ، ويكفيك أن تشتري مترين وثمانين سنتيمترا ..

- أليس من الحِـير أن تشتري ثلاثة أمتار كاملة ، فقد احتاج في المستقبل إلى تغيير «البياقة» .

- الآن عقلت ! وأين كنت حين هجمت عليك هذه الدنيئة - عليها لعنة الله - ومزقت «فراكك» وأنت ولى نعمتها ، وكيف لم تنفذ نفسك منها ؟

- قلت لك يا أماء ألف مرة أنني خفت أن يرتفع الستار مرة أخرى إذ كان الجمهور لا يزال يصفق .. والعامل المكلف بشد الستار محجوبا عنا ببعض ألواح الديكور ..

- أنت أحمق ! كان يجب حين أصرت على فسخ عقدها معك وأنذرتك أنها تراقصك ليلة أمس آخر مرة أن تصفعها على وجهها ، وتطردها خانتك من أجل زيادة قروش قليلة في أجرها ، ولكنك كالأبله هددتها بتمسكك بالعقد ، ولماذا ؟ ألم يتركك كثيرات غيرها ؟ فلماذا اثرت هذه المرأة ؟ عساك سقطت في حبالها وفَتَّتْكَ ، وظننت أنك تحبها ؟

فأجابها بصوت حزين فيه وسوسة الكذب :

- تعلمين يا أماء أننا لا نخلط في مهتنا بين العمل والعاطفة .

- هذا درس لك . وبعد فأنت لم تحسر شيئا ، ولكني أنا التي أضعت جهدي وتعبى فقد أبقيته لك جديدا عشر سنوات واحتفظت به كإنسان

عيني ، ولكنك أضعته في طرفة عين ، بفضل هذه الساقطة ، وإذا دامت
حماقتك فخير لك أن تترك الرقص الكلاسيكي إلى الرقص البهلواني ،
فهذا أليق بك وأسلم ..

وخرج صاحبنا من المتجر مهرولا ، وسار في الطرقات يتعرض
للفتيات ، تارة بابتسامة ذليلة ، وتارة بكبرياء ، وهورافع الرأس متجهم
الوجه ..
ولا يزال إلى اليوم في حيرته .

(مجلة الكاتب المصري ، العدد ٢٢ ، يوليو ١٩٤٦ ، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٦)

ذكریات دكان

١ - الرجل

ارتاب طبيب المركز في مرض فلاح عائد من الإسكندرية وظن أنه مصاب بالطاعون ، فانتدبت وزارة الصحة جماعة من أطبائها لمقاومة هذا الوباء في منطقتنا ، فرحنا ، نحن زبائن قهوة المحطة ، بضيوفها الغرباء ، واتسعت بهم على غير عادتها حلقتنا الملتفة حول المائدة ، عليها الأكواب والأقداح .

ولكننا رأيناهم - لدهشتنا وخجلنا - ينسون ترحيبنا بهم - ويقتصر الكلام فيما بينهم ، لا يدور إلا على الأمراض والعلل والأدوية والعلاج .

- ده شغل ؟ خمسمية حقنة في يوم واحد ؟

- ليه ، دى حاجة مدهشة ، أنا شفت حالات ، عمرك ما كنت تشوفها في مصر . . شفت هيدرو كيڤريس يجن ، وحالة تيتانوس ناوى أبلغ عنها .

- النهار ده شفت حالة دمه خفيف ، فلاح أسأله وهو راقد أى جنبيه يؤله فيقول لى «جنبى البحرى» .

وانتهت السهرة وتفرقنا وسرت أنا وصديقى رؤوف المحامى عائدين لبيوتنا ، كنت أسأل نفسى : هل الهيدرو كيفريس رجل أم امرأة ؟ لم أسمع من ضيوفنا اسم مريض واحد ، فقلت لرؤوف :

- لعلك توافقنى على أن هناك شيئاً من التناقض بين فخر الأطباء بأن المرضى يبعثون على أيديهم بعثاً جديداً وبين ميلهم إلى إلغاء النفس البشرية وشعورها من أجل الوصف العلمى أو الاسم اللاتينى «للحالة» لعل عذرهم إنهم يألّفون العلل والأمراض والآلام ، لا يهمهم من المريض اسمه أو نسبه أو متاعب حياته ، بل تموجات حرارته على الرسم البيانى .

فابتسم رؤوف ورأيت سارح الذهن كأنه يسترجع ذكريات عزيزة لديه وإذا به يميل بوجهه نحوى وعينه السوداء وان تلمعان بشيء من التهكم والمغفرة وأخذ يحدثنى وقد ثقلت خطانا :

- حينما جئت القاهرة لأدخل مدرسة الحقوق أقمت فى منزل واحد مع شاب من بلدياتى ، اختار دراسة الطب ، هو الدكتور توفيق - وأنت تعلم مبلغ شهرته اليوم - لم يمض علينا فى مدارسنا أسبوع واحد حتى كنت لا أناديه إلا بلقب دكتور ، أملاً به فمى فيرد لى الشئ بمناداتى : يامتر !

وحدث المعيشة المشتركة - فى السنة الأولى من صحبتنا - أفكارنا ومزاجنا ، ولكن الدكتور توفيق بدأ بعدها يلتزم فى حديثه معى لغة نصفها إنجليزى ونصفها لاتينى ، وأصبح حديثنا عن الأكل وعناصره ، وعن أصدقائنا وأمراضهم . وحينما سمح له بدخول المستشفى كان الهم يضى

جنيبة إذا ساءت حال مريض في قسمه تكون أول كلمة يقابلني بها عند رجوعه :

- الحمد لله ، التهاى الرئوى أحسن ..

ولا أنسى اليوم الذى مات فيه أحد مرضاه ، فإنه صد عن الأكل حتى كأنه فقد عزيزا لديه أو على الأقل كأنه خسر بحماقته مبلغا كبيرا فى القمار ..

واستغل بعض جيراننا الفقراء طالب الطب ، لأن استشارته لا تكلفهم شيئا ولكنهم كانوا غير غلصين فى الوثوق به ، يزوره المريض مرة ثم يختفى - إلا مريض واحد هو المعلم شعبان ، صاحب الدكان بأسفل المنزل ، إذ كان لا مفر من أن يقابل صديقى فى دخوله وخروجه ..

ولما فحصه توفيق أول مرة لم يجد صعوبة فى تشخيص المرض فهذا الاصفرار الذى يكسو وجه الرجل ، واضمحلال بصره وثقل شفثيه إذا تكلم ، وهذا الظهر الذى يحره للانحناء صدر ضعيف يمزقه سعال حاد ، علامات بينة للإدمان على المخدرات - على الأفيون - ومع ذلك فقد نقر صديقى نقراته المعروفة على عظام صدره ، وتسمع أنفاسه ، وجبس نبضه وقاس ضغط دمه ، وضرب بحافة كفه ركبتيه فانتفضت قدمه ، وأطل فى عينيه ، وقلب جفنيه وضغط لسانه بملعقة حتى كاد الرجل يُفرغ معدته .

- انت بتستعطى أفيون ؟

لم ينكر المعلم شعبان إدمانه على الأفيون ، وكان دفاعه أنه اعتاد عليه منذ صغره وأن الأفيون لا يضر ، ولا شيء مثله يشد الأعصاب ويُروِّق

الدم ، أما نحفه فمن أثر صفراء في كبده ، والسعال سببه كثرة التدخين ،
ولو تخلص من البلغم لارتاح صدره ..

- إذا كنت عاوز تخف ، لازم تسمع كلامى . عندى لك دواء يبطل
الكحة ويخليك زى البمب . بس لازم تسبب الأفيون .

- أهوده الكلام الدوغرى .. مش الدكتور النصاب النصرانى اللى
رحلته السنة اللى فاتت فى الأزبكية ، قال عندى سل .. شوف المغفل ،
لكن أناح اسمع كلامك يادكتور وربنا يقوينى .

وساعة منحنا المعلم شعبان ظهره زال اسمه من حديثنا وأصبح تسسم
المخدرات .. أو الربو .. وبدأ الدكتور درسه :

- أمامك مثل جميل لتسمم المخدرات ، إن الأفيون الذى يبلعه هذا
الرجل فى يوم يكفى لقتل شاب فتى إذا تناوله لأول مرة . ومُخشى على هذه
الحالة من اختلاط الدهن وكثرة الأوهام واضطرابها وفرحها للتافه ،
وتوهمها الشر من أبرياء ، ثم جاء الربو وأصبح يدور مع الأفيون فى حلقة
مُفرغة : الربو يستنيم للأفيون ، ويطلبه بالحاح ، فإذا أصابه ضعفت
مقاومته للنوبة التالية ، وزاد جوعه للأفيون ، وهكذا دواليك .. سأتبع
هذه الحالة ، فقد تنفعنى فى الامتحان .. وسأبذل كل جهدى فى
علاجها ، مستعينا بأساتذتى ..

ولكن «المنطق» جعلنى أشك فى نجاح صديقى إذ ستحاربه شيخوخة
الرجل ، وعاداته المتحجرة ، بل ودكانه الذى يرتزق منه .



لا أنسى إلى اليوم الدكان الذى فتحه المعلم شعبان للأنجار فى مخلفات السلطة العسكرية ، لا يمر بيالى إلا تذكرت بوضوح حياة القاهرة إبان الحرب العالمية الأولى وما كان يتعاقب عليها من صور جديدة غير مألوفة .

لقد ظل القاهريون منذ انقضاء هوجة عواهى زمنا طويلا لا يعرفون الحرب ، ولكنهم سرعان ما ألفوا الزحام لقراءة منشورات القائد العام ، والزحام لشراء البترول ، والزحام حول بائع جريدة «الشعب» ولو كانت بيضاء ليس فيها سطر واحد إلا عنوان المقال المحذوف وامضاء كاتبه . . هل تذكر ؟

وأنستهم هذه الحياة الجديدة التى تجرهم إلى غاية مجهولة أن يفطنوا لما فى فتح دكان يبيع مخلفات الحرب والواقع فى أحد شوارع القاهرة المطمئنة من تناقض وغرابة . . لا غرابة ولا دهشة . . لا نرى الحرب ومع ذلك - هل تذكر ؟- نستنشق جوها البغيض . لا ننام فى خنادق ومع ذلك فإن أعصابنا متوترة مضطرب للهمس وتلقف الإشاعات . . لم تكن القاهرة أرض معركة ولكننى أذكر كيف كنت أستيقظ فى بعض الليالى على زججرة السيارات ، يلاحق بعضها بعضا ، تحمل الهنود والأستراليين إلى القلعة ، فأجد فى سكون الليل معنى جديداً ، هو الجمود والتيقظ للإنصات إلى زئير موقعة هى جد قريبة . . لا أسمع شيئا ، ولكن أذن تطن وتتهم أن الطين إنما هو صدى قصف المدافع البعيدة فى موقعة لاتبينها مهما جهدت حواسها ، وتظل فكرق عنها مبهمه ، ويتمكننى شعور كأنه لازمنى طول حياتى - هل الحرب من غرائز الانسان ؟- شعور بجبروت الحرب وسلبها البشر عقلهم وضميرهم ، فإذا عملهم ونشاطهم وشجاعتهم مُسخرة

للشر . . وإذا بهم باقون على الدهر ، مجموعة من العُي والضعف والذلة
تستحق الشفقة .

وكانت الصورة التي تؤلفها الألوان القائمة : الدردنيل ، منشور
القائد العام ، التسعيرة ، قد كملت ونطقت بالقسوة والجبروت بفضل
(رتوش) صغيرة . . وكان دكان المعلم شعبان الذي يبيع فيه مخلفات
السلطة العسكرية أحد هذه الرتوش الصغيرة .



مكان صغير تستطيع أن تصل إليه مستعينا بأنفك لا بعينيك ، ولكن
بأى ثمن ؟ تستقبلك رائحة المستشفيات المزدحمة ، فتملأ خياشيمك
وينقبض لها صدرك ، تبعثها أكوام تكاد تصل للسقف من جاكئات كاكي
حائلة اللون ، وحملات عسكرية ، وتلؤلؤ من الأحذية القديمة
والناموسيات المصفرة ، وعجلات الكاوتشوك الممزقة ، وعلب كثيرة من
الصفيح . . تكاد كلها - هذه السلع الصماء - تنطق بأنها منهوكة القوى
وأنها فقدت قيمتها ومعنى حياتها وأنها لا شيء سوى حطام معركة قاسية
ذوت بشابها .

ولكن المعلم شعبان - وكأنه ينتقم لتأثير هذه الأكوام على صدره كان
له قلب لا يعرف الرحمة ، ويد تكره الهدوء . . فهي دائبة التنقيب بين
الأكوام حتى إذا غثرت على الجاكته الكاكي أسلمتها إلى شقاء طويل تعانيه
على جسد سائق عربة كارو ، أو حمال أو بائع متجول ، ولذلك ترى
الجاكته ، وهي تخرج من بين الأكوام إلى لنور قد تهدم كيائها وتراخت
وذلت للقدر ، كما تذوب قوى الدجاجة ويبيع صوتها في صرخة واحدة حينها

تشعر أن يد (الفرارجي) قد سقطت عليها مرة دون بقية الدجاج .

ومن العجيب أن هذه الدكاكين تناثرت في وقت قليل في الشوارع حتى ألفها القاهريون ، والأعجب أن بعض العامة مرّوا على استغلال السلطة العسكرية استغلالا بارعا كأنهم خبروا هذه التجارة طول حياتهم، علمتهم حروب متوالية أسرارها ودقائقها .

لا أدري أى مهنة كان يرتزق منها المعلم شعبان قبل أن يختار هذه التجارة ، ولكنك لو راقبته وهو يرتّب بضاعته، كل صنف على حدة ، ويقص الناموسيات لبيعها طرّحا للفقيرات ويقطع كعب الحذاء المشوه ليصبح خفا يمشى في السوق أو يخلع الجلد ويبيع النعل إلى دكتور الجزم الشاوي بقربه على الرصيف ، لحبّل إليك أن السلطة العسكرية - بميكروب كبير هو بدوره مزرعة خصبة لميكروبات أصغر - خلّقت ليستغلها أمثال المعلم شعبان .

إفنه لها ليس وليد المعاشرة وإن طالت ، بل هي شيء في لحمه ودمه ، بدليل هذا التلاؤم التام بين أكوام الجاكيتات الكاكي المصفرة ووجهه الشاحب الحائل لونه ، وبين أكوام الأحذية ويُلغته الجرباء ، بل بين أكوام علب البلوييف وعلبة دخانه الصفيح التي يضعها بالقرب من قلبه .

وليست الفصيلة التي يتّمس إليها المعلم شعبان بالقليلة العدد ، وقد لا يمتنّ كلهم مهنته ، ومن السهل أن تكتشف صورة أخرى للمعلم شعبان إذا نشبت في الشارع معركة بين فتوات الحى ، فسترى التزق وقلة الصبر يقلب متفرّجا إلى خصم ، هو من أشدّ الخصوم تحمّسا فلا عجب أن تكون إصابته أقبح الإصابات . وسترى الأعصاب الباردة التي تقف على

الحافة تنتقد المتضارين ، وتنتقد المتفرجين لسكوتهم عن تفريقهم ..
ولكن ثق أيضا أنك سترى شخصا لا يتكلم ولا يهمس ، لا يخاطبك ولا
ينتظر منك أن تخاطبه ، بل هو يروغ من هنا وها هنا وهو غنى القامة يبحث
عن الطواقى لتي طارت ، والمناذيل التى سقطت ، والساعات التى وقفت
دقتها ، وكلما طال أمد المعركة زاد حمله ، فإذا انتهت بصلح وتقييل
الرأس ، ابتداء يوزع على المتضارين مخلفاتهم فى ساحة المعركة ولست أجزم
بشيء عن مآل هذه المخلفات إذا انتهت المعركة إلى قسم البوليس .

هذا الرجل مثال صالح للمعلم شعبان القاهرى فى ذيل ساحة
الحرب ، فهو لا يشارك فى الحرب ، ولا يفهمها ولا يهيمه انتهت بصلح أم
على يد القسم ، مادام أن أحضانه تتسع لما يتساقط عليها من الجلاطات
والأحذية والناموسيات ..



ولكن السلطة العسكرية لم تكن معركة هينة فى حارة ضيقة أو زقاق
مسدود ، بل كانت دوامة واسعة شملت العالم وفرضت حركتها الهوجاء
قسرا على الجميع ، كان المعلم شعبان حقا فى طرفها البعيد القاصى ،
وظلت هى متغافلة عنه ، تستكين لمقاديفه يشق بها مياهها ، صابرة حتى
ينزلق قاربه إلى حيثما يريد والمسكين لا يشعر أنه يُجرُّ فى الوقت نفسه إلى
هاوية سحيقة ستحطمه تحطيمًا ، وأن هذه الأطراف البعيدة النائمة ستطبق
عليه وتدفعه إلى مركز المأساة وتبتلع فوهتها لحمه أو بعض لحمه بين
الأجسام التى لا تُشبع جوعها ونهمها ..

فقد بادله السلطة العسكرية بمكر وخبث استغلالا باستغلال ،

واختلست لنفسها ابن المعلم شعبان الوحيد لا يهملها أن تكون حياة فرد
كفؤا لحطام بال من قماش ومطاط . . فإذا بالمعلم شعبان يرى نفسه وهو
وسط دكانه في الشارع الهادئ البعيد الذي لم تنفجر فيه قبلة ولم تطلق
رصاصة وسط أشد المعارك جنة وهولا . .

وشمل هذا الانتقام الحثيث صديقي الدكتور توفيق أيضا ، إذ وجد
أن الحالة رغم اعتناؤه بها وإخلاصه لها وأمله في تقدم شفائها قد ساءت
فجأة وزاد انحناء المعلم شعبان نحو الأرض ، وصعد الرجل سلمنا ذات
صباح وهو يتريث كل درجتين ينتظر انتظام تنفسه ، حتى إذا وصل إلى
حجرتنا كان صدره كالقصبية المشجوجة ينفخ منها بهواء يتقلب أنينا
خافتا . . فأقبل عليه صديقي يقوده إلى مقعد بجوار النافذة ويفتحها له ،
ويومئء له أن يتنفس بهدوء وعلى مهل ، وشعرنا معا أن يدا قوية أطبقت
فجأة على رقبته فازرق لونه وشخصت عيناه وانحدر رأسه على صدره يهتز
اهتزازا متواليا سريعا متأثرا بالموجة تقفو أثر الموجة تتلاطم بين ضلوعه
وتكاد تسمع رجتها كوقع حوافر الخيل الشاردة على كلبان من الرمل . .
وكلما تلقى ضربة جديدة زاد انحناءه ومال يجمع قواه كلها ليركزها حول
صدره يتمتع أن ينفجر ، ويتلقف أنفاسه ويضغظها عليها تكتم البركان
الناثر ، ولكن عبثا !

وتظل أنفاسه كالنشار الصدى يغدو ويروح في قلب شجرة
عجوز . . أين الهواء المؤدب الصامت الذي تبعثه صدور الناس من هذا
الهواء المحرم الذي يعبث في صدره ، له سلاح فاتك يضرب به ذات اليمين
وذاة اليسار ، وأصبح شهيقه جرعة الغريق من الماء يعلم أن فيها موته ،

ومع ذلك يحب بها فمه ، وأصبح زفيره كقوى جائع يلفظ اللقمة التي لولاها مات من السَّعْب، ويظل هذا التلهف على الهراء ، حتى إذا دخل صدره فالخيرة كل الخيرة في إخراجه ، والألم كل الألم في كتمانته حتى تهدأ حركات رقبته وتشعر أن البركان قد خمد لولا بقية من دخان يخرج في عمود ملتهب ، إذ ينتهي السعال بحشرجة كأنها فحيح الأفاعى ، وتكون أول كلماته (أف !) ويمسح العرق من على جبينه ويُرْوِّح بكفيه على وجهه ، ويحتاج إلى برهة يكون فيها إحساسه متبلدا وقواه خامدة أثر مجهودها حتى يستفيق إلى نفسه وينتبه لما حواليه وتبحث نظره عنا وهى ذاهلة لا تدري كيف رُدَّت إليها الحياة . ولما تمت استفاقة طفلق يحدثنا كأنه قدم إلينا لبث شكواه لا ليطلب دواء .

- أنا يادكتور ماليش فى الدنيا غير ولد واحد ، صرفت عليه دم قلبي . ولكن ياميت خسارة طالع ولد خييان ، طالع فى الشبوية والشطارة ، كام مرة التخانق وراح القسم ، وكام مرة طلعت بالليل من جيوبه بونيات حديد ويلاوى زرقة . دخلته كافة صنعة خلقها ربنا ما فلح . . ومشى على حل شعره ، عيأى ده سبيه ابني ، هو اللى طلع الصديد على عيني وخلاني أطفح الدردى وأطرش الدم . . لغاية ما كرهته ونفيتة من بيتي وحلفت بالطلاق إنه ما هو داخله . قال حب يغيظني راح كتب اسمه فى السلطة وتقول إيه فى قلب الأب ، ليلة ما سافر ما عرفتش أنام ، وعيَّطت فى المحطة زى النسوان ، ورجعت للبيت حزنان زى ما أكون راجع من ميتم .

فأخذت-أهدىء روعه وأطمئنه على ابنه ، وقاطعنى توفيق يسأله عن الأفيون وهل هو ماض فى تناوله فأجابه :

- أقول لك الحق يادكتور أنا عاوز حقن مقوية والا دوا يفتح النفس وتعمل في معروف وتشوف لي حاجة تبطل المزيكة اللى بتزق في صدرى .

وكان توفيق قد أعدَّ خطته وبدأ باعطاء الحقنة الأولى من ميكروب الربو ذاكرة الى بالإنجليزية إنه سيجرب إعطاء أكبر مقدار ممكن ولو أن كتب الطب لا تنصح بذلك .

وعندما أخذ يؤكد على المعلم شعبان مرة أخرى أن يتمتع عن الأفيون كان كأنه يسأله صدقة أو إحسانا .

وكان للصدقة تأثير سيء على المعلم شعبان ، إذ لاحظت أن اهتمامه بعمله قد قل ، وبعد أن كان يشتغل بمزاج مبعثه الأفيون ، أصبح خاملا يهمل عمله ، فكان من قبل إذا دخل عليه زبون قاس طوله وعرضه بلمحة واحدة من عينيه أثناء الحديث ، ثم انقلت إلى أكرامه يهبل جوانبها حتى يظفر له بجاكete لا تهبط إلى ركبتيه . . وكان صابراً في عمله ، يشعر نحو سلعه بحب أبوى ، فلا يبيع الجاكete إلا إذا أخرجها لضوء الشمس أمام الدكان ، ورفعها بيده ، ليرى المشتري مزاياها ، وهو لا يفتأ يصعد نظره فيها ويطلعه ، ثم يديرها كما يفعل القصاب بذبيحته المعلقة يتحسسها بسكينه نحسة خفيفة لتدور أمام الزبون . . ولم لا ؟ أليست السلعتان جسدين قد خلا منها الروح وأزيلت عنها بقع الدم باعتناء ؟ ولكن المعلم شعبان أصبح الآن يجلس على مقعدة ويترك الزبون يختار لنفسه ما يشاء .



وأعطيت الحقنة الثانية والثالثة ولا حظت أن صديقى توفيق مسرور لأن عدد نوبات السعال التى تصل إلى آذاننا من البركان قد قلت ، وعاد

المعلم شعبان إلى نشاطه واهتمامه بعمله ودكانه ليشتري أصنافا جديدة ويتوسع في تجارته . . واستوفيت ذات صباح وهو يتسم مسرورا :

- ما شفتش ياسيدنا الأفندي التمثال الجديد الى اشتريته قريب من ترزى مفلس ؟

وأشار إلى ركن مظلم في الدكان رأيت فيه تمثالا خشبيا قديما على هيئة رجل ، من الطراز الذى كنا نراه أمام أبواب المتاجر الصغيرة فى الموسكى ويعجب له زبائن هذا الحى من الفلاحين .

فضحكت لضحكه .

وكاد المعلم شعبان يعود فى حديثنا مذكورا باسمه لا بلفظ الحالة أو «الربو» لولا حادثة شاهدها برهنت لى على أن التحسن صحة خادعة . .

ذلك أن مصادفة لا أذكرها جمعتنى ذات صباح مع المعلم شعبان أمام دكانه ، وكانت عدوى الاهتمام بمرضه وتروى شفائه قد سرت إلى وأخذت أفحص وجهه وعينه ، فخيّل إلى أن الوجه وجه أصحاء ، ولكن السأم تملكنى حين تطلعت لعينه ، فقد زاد انغماسهما وأخافنى ما رأيته فيهما من معنى مبهم لا أدري هل هو الوجوم أم القلق أم شرود الذهن وغيبابه ، ورأيت يتكلم ، ثم يصمت برهة طويلة ، فإذا عاد للكلام حدثنى عن موضوع آخر جديد ، ولكنه بعد أن شرب فنجان القهوة التفت إلى فجأة وأشار إلى مدخل الدكان فرأيت التمثال الخشبي ماثلا بالقرب من الباب وقد ارتدى معطفا قديما وطرنوشة متربا وأخذ المعلم شعبان يقول كأنه يحدث نفسه :

- والله عجيبة ياسيدنا الأفندى ، التمثال ده فى كسم ابنى وطوله وعرضه تمام ، وشوف البطو لابسه وخايل عليه زى ما يكون مفصل .
أهو ده بالطو ابنى عبده . وأنا كان مالى ومال التمثال ده . أشربه ليه ؟
ساعة ما أفتح الدكان فى الصبح ألاقى وشه فى وشى أفكر ابنى عبده .
ولكن أقول إيه ، ربنا يخلق فى قضاء رحمة .

وأصبحت بعد ذلك اليوم كلما مررت على الدكان يخيل إلى أننى أرى فى التمثال حياة واضحة ، وكان تمثالا قديما تفككت مفاصله وانحلت أربطته فمال صدره إلى الأمام قليلا وتباعدت ذراعه عن جسمه يحذران من كفتين متصلبتين ، ولعل هذا التشويه هو الذى أضفى عليه فى نظرى حياته ، ولو كان كبقية التماثيل نظاما وحسن صعة لظل طول حياته حشاشا متينا . .

ويدل التمثال على أن بائعة رجل عمامى الذوق ، إذ أعاد - بقصد تجديدده ورفع ثمنه - تلوين وجهه فزاد من صبغة الشعر اسودادا ، وطنى الطلاء على جبينه قليلا ، ويدل عينيه دوائر شوهاء ، وجعل لون حلقتيهما أصفر فاقعا ، ولم يكتف بذلك ، بل أراد أن يهبه منظر الفارس الشجاع فعقص طرفى شاربه حتى وصلا لحديه .

وقف هذا التمثال وسط دكان المعلم شعبان كأنه زائر متفروح . . ماله هو وهذا الحطام اللقيط ؟

وذات صباح ، وأذكره بوضوح ، لأنه كان أول أيام العيد ، سمعنا ونحن نفطر سعال المعلم شعبان فإذا هو أعمق غورا وأشد ترجيعا ، فتعكر وجه صديقى توفيق ورمى اللقمة من يده وقال غاضبا :

- لازم المغفل رجع تاني للأفيون .

وأسرع ليرى حالته عاد والغيط يرهق أعصابه !

حالته زى الزفت ، حرارته مرتفعة وجات له نوبة إنما شديدة خالص .

ولما خرجت عرجت على المعلم شعبان فإذا به على خلاف عادته قد ترك مقعده وقعد القرفصاء وأخفى رأسه فى فجوة ذراعيه المستندين على ركبتيه ، فلما ناديته ارتفعت عمامته الغبراء ، وبدا وجهه ممتقع اللون ، قد غاض منه ماء الحياة . .

- كيف حالك يا معلم شعبان ؟

فلم يتكلم ، وأشار إلى الدكان فالتفت فإذا بى لا أرى شيئا عجيبا ، فكرر إشارته وقال :

- شوف ، شوف اللى جرا لى .

فرايت عندئذ التمثال الخشبي ملقى على الأرض ، وقد تباعدت ذراعه . .

- خلاص ابني مات ، جاله قضا الرحمن ومالفاش حيلة .

- كيف مات ؟ هل جاءك خبر ؟ جواب ؟

لأننى لم أستطع أن أثبت العلاقة بين سقوط هذا التمثال على الأرض وبين موت ابنه ، ولكنى بعد أن سمعت جوابه أدركت أن الرجل قد كثرت أوهامه وبدأ يخلط ويهذى .

- أبدا ، أنا فتحت الدكان الصبح زى العادة لقيت التمثال واقع وأنا

سايه إمبارح واقف وسليم ، معلاهش ، ربنا عاوز كده .

فدخلت الدكان ، ولعلك تدرك مقدار تأثيرى ورغبتى فى مسامرة أوهام الرجل إذا قلت لك إننى دخلت الدكان لا لشيء إلا لأرى حال التمثال ، وما كدت أميل فوقه حتى صدمنى الاصفرار الشديد المحيط بالعينين ، والنظرة الثابتة كأنها من حدقة ميت ، وبدت لى حافة شاربه كأنها فجوة خد الضاحك ساخرا ..

ومرت أيام كثيرة والتمثال ملقى على الأرض والمعلم شعبان يرفض أن يقيمه على ساقيه ويضعه فى مكانه القديم ، حتى علمت ذات يوم أنه تلقى نبأ وفاة ابنه وفهمت من الجيران أن وفاته كانت ليلة العيد .

وظل الدكان مغلقا زمنا طويلا ، على بابه ورقة تنعى عبده إلى الجيران وتدعوهم إلى حضور الماتم فى الحنفى .

وزارة الدكتور توفيق فى منزله ورجع ضجرا ملولا يتهرب من أسئلتى واكتفى بقوله :

- وصلت الحالة إلى آخر دور ، وبدأت تهذى .

ولذلك حينما عاد المعلم شعبان إلى فتح الدكان قابلته بشيء من اللهفة ، فوجدت نفسى أمام شبح لماضى مؤلم ، فقد زاد نحول الرجل ونفر عرق فى رقبته واكتست يدها بزرقة المرض وثقلت خطواته وفقد كل دافع للحديث . ولم أر الملل يتمثل فى شيء كتمثله فى كلمة (نعم) التى يجيبني بها المعلم شعبان كلما حدثته. وكان أول عمل صرف إليه اهتمامه أن أقام التمثال الخشبي معتدلا مكانه ومسح التراب العالق بمحطته ، وعندئذ هدأت أعصابه وعاد إليه التفاته لعمله ، وكان يقول لجيرانه :

- أهوربنا بعت لى ابني لغاية عندى ، أهوز إيه أكثر من كده ..

وسمعت منهم أن الرجل إذا أقبل صباحا وفتح الدكان كان أول ما يشغله أن يدور حول التمثال ويراقب حاله ويفحصه ، وقد يمضى معظم نهاره لا يرفع عينيه عن التمثال الخشبي . أما الجيران فقد تواصلوا بتركه في وهمه ما دام أنه واجد فيه العزاء والسلوى .

ولم أدر أن خبل الرجل قد استفحل إلا يوم أن فزع من بائع بطيخ كان يقطع أمام الدكان بطيخة بسكين طويل ، إذ اعتقد أن البائع يقصد قتله وأقسم ليشكونه إلى القسم .

٢ - الليلة

ودخل الشتاء يحمل إلى الصدور الضعيفة إنذارا جديدا يثير مانام من دعرها أثناء الصيف فتعلو من جديد صرخاتها الخافتة وحشرجتها الغليظة مستنجدة مستغيثة .

لم ييأس صديقى توفيق من حالة المعلم شعبان ودأب على إعطائه الحفن ودفعته الثقة بالنفس إلى رسم منهج لمستقبل مريضه ..

- الصدمة صعب صحيح عليه ، وستسبب شيئا من الانحطاط في قواه العقلية ولكنه سينسى مع ذلك وفاة ابنه كما نسى يوم توديعه غضبه وحنقه عليه.

وأسلم المعلم شعبان إلى صديقى توفيق جسده ، في غير اهتمام أو

مبالاة ، وكنا إذا أصبحنا وسمعنا سعاله علمنا حالة هذا الرجل المسكين في يومه إن خيرا وإن شرا

ولكن لم يمض زمن طويل من الشتاء حتى حدث في ليلة ممطرة ونحن نطالع كعادتنا في حجرتنا ، والهدوء قد أرخى سدوله حوالينا لولا قطرات المطر المتخلقة على النوافذ تتسكع في سقوطها واحدة بعد أخرى ، أن سمعنا فجأة السعال الذي ينساطرنا حياتنا ، عرفناه لساعته من ترجيعه الطويل ومن حشرجته المتتالية

نظر إلى الدكتور توفيق فنظرت إليه .

- المعلم شعبان هنا في منتصف الليل ؟ والدنيا تمطر ، ماذا يريد ؟

وأطل صديقي من النافذة فرأى المعلم شعبان يحاول فتح الدكان فأنشئ وقد تملكته حيرة وقلق وتلفت يبحث عن دثاره :

- تعال ، تعال ، نشوف إيه ده كمان .

رأينا المعلم شعبان واقفا بالدكان وقد أدار ظهره للطريق والدخان يتصاعد من فتيلة مصباح من الصفيح موضوع فوق الرف

وقف الرجل يهز جلابيه ينفض المطر العالق به ، وكاد صديقي يدخل إليه لولا أنني منعتة لأنني سمعت الرجل يتحدث نفسه :

- معليهش يابني يا عبده . . المطرة نزلت عليك وبللت هدومك والدنيا برد وتأخرت غصبت عني .

وقف الدكتور توفيق ورأى ، يجذب طرف ثوبه ويقول

- مغفل ، أنا قاييل له أروع يطلع في البرد ، شوف لابس جلابية شكلها إيه في عز المطرده ، معلوم ، خد بالك ، صدره بيزيق إزاي ، وبص تلاقى نفسه مكروش ، عنده الآن احتقان شديد في رئتيه .

وانحنى المعلم شعبان يبحث في أرجاء الدكان حتى عاد ومعه دثار قديم لفه على التمثال الخشبي ، الواقف بمدخل الدكان ، وقد تساقط عليه بعض قطرات المطر من شراعة الباب .

ومرت بنا نظرتي ، تائهة لا ترانا : . وتملك صديقي أذني مرة أخرى ، بالرغم مني :

- أنا مش قلبت لك إذا ما كانش يبطل الأفيون سيصاب باختلاط في ذهنه ، أهو أنت حطك كويس ، قدامك دلوقتي أحسن مثل له (ديليرم ترميمتس) من تسمم الأفيون . شوف . خد بالك ، النني واسع إزاي ، والعين جاحظة ، لو قست حرارته دلوقتي يمكن أربعين .

ومنعتني بلاهة طارئة من أن أستمع لصديقي إذ كنت أسير كلام آخر :

- يلبنى الشبوية جنان في جنان ، اللي فيك فيك ، كل ليلة تبات نايم في الهوا ، مطر والا مش مطر ، مالكش أب يخاف عنيت ؟ مالكش أم . علوزاك ؟ دايما دماغك ناشفة .

وأخذ المعلم شعبان يلف الدثار حول التمثال ، ثم وقف يحلق فيه برهة بعينين تتبادل عليهما نظرة حنان ، ونظرة حائرة تدل على شرود الذهن :

- رح يَقْذَل واقف كده يا عبده طول الليل ؟ يابنى أرق ذلك شوية ،
نعال ، أنا أنيمك ، تعال

وكان الدخان المتصاعد من المصباح ينعكس على وجه التمثال وتدور
حلقاته حوله ، وتتلاعب ظلاله فوقه ، وكلما انعكست على وجهه ثم أظلم
نطقت صورته بوضوح بمجهود قوى للإفشاء والبوح . . تبذله روح لا تجد
في الشفتين الخشبيتين إلا أشأم الأقفال ، وتحبس قوتها وتشلها أعضاء
جامدة لا تختلج للعاطفة .

ومع ذلك كان حديث التمثال مفهوما ، فكلما انعقدت الظلال فوق
جبينه رأينا الغضب يقطب أساريه ويحرق دمه فإذا انحدرت الظلال إلى
ذقنه وزاد اسوداد حافة الشارب تقلصت الشفتان وشعرنا معها بالألم
الدفين .

وكانت العينان تحتفیان بين حين وآخر وراء سحابة رقيقة من
الدخان ، فإذا سوادهما الكالغ بالنهار يبدو حقيقة وإذا به إنطفاء الحزن
والأسى .

واقترب المعلم شعبان من التمثال يريد أن يحتضنه ومال عليه ليزحزحه
فدوى صرير رباطه وانصب في أذنى كأنه صرخة استغاثة من روح إلى
روح .

ودار حول التمثال وانحنى ليقوى على رفعه وأراد القيام فلمست يد
التمثال كفه وارتفعت معه وكان المعلم شعبان قد شعر بتبادل الحنان فزاد
من انطوائه تحت ابط التمثال ودار بذراعيه حول وسطه ولبثنا برهة طويلة
نرى ضمة حب قوى تجمع الحما ونحشا .

- أدى أول مرة تطاوعنى فيها .. ربتاً يهديك يابنى كمان وكمان ..
 وواجه التمثال ضوء المصباح وانقشعت الظلال من على وجهه فإذا
 جموده صبر وانصياح الطفل بين يدى أبيه .
 ولما بدأت رأسه تميل كدت أسمع فى جو الدكان تنفس طفل ينام ..
 ولكن صديقى توفيق لا يزال يهمس فى أذن :
 - علشان تعرف المجهود اللى هوا فيه شوف العرق اللى على جتته ،
 وأنا باربعش من البرد .
 - خلاص اصبر على ، أنا أريحك ، شايف إيديك ماتخافش .
 وانحنى المعلم شعبان يجمع قوته ، متمهلاً فى حركته حتى لا يقع
 التمثال على الأرض ولكنه انفلت بثقله من بين ذراعيه واصطدم بالأرض فى
 صوت مكتوم كأنك ألقيت بقفة من العظام البالية .
 ومالت رقبة التمثال نحو كتفه ، وتباعدت ذراعه ، ورسم ظل الرأس
 على الأرض بحيرة من الدماء تتدفق من فمه .



وكنت وصديقى رؤوف قد جاوزنا عند هذا الحد من الحديث منزل
 العمدة ، وخرجنا من أنوار البلدة إلى طريق مظلم ، على يسارنا سور
 متهدم لمقبرة قديمة حوالها نخل كثير ، وفى الناحية الأخرى غيطان تتناثر
 فيها نيران خافتة كثيرة الدخان تحرسها كلاب بعويل طويل يردده زميل بعد
 زميل وإن تباعدت نيرانها . صرير الجنادب يؤكد هدوء الليل ووحشته ،

انقبض قلبي ، وزاد من انقباضه أننا دخلنا في ربيع حقل ذرة فهب عليها منه
هواء ساخن مشبع برطوبة زهمة .

وكفّ صديقي رؤوف عن الكلام ، ووقفنا نسمع حقل الذرة كأنه
بحر خضم تتلاطم أمواجه ، يصلنا منه صرير الهواء الذي غره منظره فلما
دخله وحد نفسه كالفأر في مصيدة لا يغرف خلاصا ، فهو مضطرب ،
يضرب هذا العود حتى يرغم أنفه للأرض ، ويثب كالهرة فوق عود آخر
فيهز شواشيه ، ويروغ تحت أقدام عود آخر . . ولكنه يجد نفسه يخرج من
سجن إلى سجن ، وتضيق أنفاسه ويشتد اضطرابه ويعلو هياجه ووصلتنا
صيححات هذا الهواء المحبوس مملوءة صفيرا هو كل ما بقي من أرواح تموت
اختناقا في سجنها المكشوف .

ولما أثار القمر هذا الحقل ، وبدت لنا حركة أعواده تركناها وكل منها
يطعن الهواء بقرنيه ، ثم يثوب لنفسه يسترد قواه . .

وهب من رقاده الطويل قطار بضاعة في المحطة البعيدة وطلق عظامه
فملأت صدمات الحديد المتوالية الجورهة ووجشة ، وسار القطار يتسكع
على شريطه ، واختفى . إلى أين ؟



واستمر المعلم شعبان يبحث عن أغطيه أخرى يهيلها فوق التمثال ،
ثم انحني عليه ، وقارب ذراعيه إلى الجسد ، وعدل رقبته فأنكشف وجهه
للنور دون أركان خده ووضح جبينه فإذا بابتسامة خفيفة تسحبها الضوء

ويلقيها على وجه فتى متعب راقد في فراشه ، يحلم حلماً لذيذاً بعد سفر شاق
وغياب طويل .

وأخذ المعلم شعبان يلقي أثواباً أخرى على التمثال واحداً بعد آخر ،
حتى أصبح قبرا عالياً .

جذبني توفيق ، إذ كنت قد فقدت إرادة الحركة - ويداه تحميان صدره
بطيأت ثوبه :

- سيبه . سيبه ، لو صحيناه دلوقتي حالته تسوء زيادة ، ولا فيش
فايدة خلاص . . أنا أحسن أوفر الحقن بكرة لحالة تانية . .

قصة في عرضحال

عثرت أخيراً على الشكوى التالية بين ملقبات الحارس على أموال
الأعداء المتخلفة عن الحرب العالمية الثانية ، وقد وقَّع عليها الحارس
بقوله : تحفظ لعدم الأهمية .

إلى حضرة جناب الحكومة المصرية السنية .

استرحام

سمعنا أنك قدمت للدول أو على وشك أن تقدمي أو سوف تقدمين ،
والعلم عند الله وحده - كشفاً تفصيلياً بما أصاب مصر العزيزة من خسائر
في الأموال والأرواح بسبب الحرب وأنا واثق أن اسم صديقي العزيز
الطيب القلب المسكين فهمي توكل سعيان غير وارد في هذا الكشف لأن
حياءه غلبه ففضل الصمت ولولا حبي له وعلمي بأنه مظلوم لما أزعجتك

بهذا الاسترحام التمس فيه منك أن تدرجى اسمه فى الكشف وتضعى تحت
بند الأموال خسائره الآتية :

١٥٠ جنيها ورق بنكنوت .

٥٠ جنيها علبة سجائر من الذهب (ولم أحسب ثمن ما فيها من سجائر
لاكى سترايك) .

٢٥ جنيها قداحة من صنف دانهيل .

٣٠٠ جنيه سيارة بالليلا ربع عمر - أما الكاوتشوك فلا يمكننى تقدير
عمره لأننى لست خبيراً بالأنتيكة . .

وأرجو كذلك أن تضعى تحت بند الأرواح الضائعة اسم صديقى ،
إنه حقاً لا يزال حياً ، ولكنه يعيش بيننا كالميت فى يده بطاقة بصرف كفن
شعبى واحد

الموضوع

كنت وفهمنى توكل منعفان طالبين متجاورين فأصبحنا صديقين
متلازمين ، ثم انفصلنا لأنه اضطر بعد الشهادة الابتدائية إلى الانقطاع عن
الدراسة لفقره وسافر لبلده ، ثم عاد وفتح دكاناً صغيراً لمسح وتنظيف
الأحذية على الطريقة الأمريكية ، وفتح الله على وحصلت على الكفاءة
ووظفت ساعياً بمصلحة البريد فكانت مهنتى واضطرابى إلى مسح الحذاء
كل يوم وترقيعه كل أسبوعين سبباً فى إعادة الصلة ودوامها بيننا - فكانت
أجده جالسا وراء مكتب صغير ، من خلفه راديو له ضجة وصغير ، وعن
يمينه ماكينة خياطة يتخلل أغنياتها الجميلة - كضربات الطبله - وقع

الشاكوش وهو يندق المسامير في الكعوب والنعال (ولا أدري أى الأنعام كانت أكثر إطراباً لصديقى) ثم أخذ يتاجر في الجلود وحيثبدأت الحرب وتوالت عليه المكاسب ، وكان الترمومتر الذى أقيس به ارتفاع أرباحه هو السيجارة التى يصير على تقديمها إلى كل يوم . وكان فى مبدأ الأمر يدس يده فى جيبه ويصطاد لى منه سيجارة واحدة - فرطاً - من ماركة لذيذ أو الفيل ، فأصبحت (معدن) أو (فلاج) ثم (ممتاز) أو (واسب) . ولما رأته ذات يوم يقدم لى من علبته سيجارة شستر فيلد أدركت أنه أصبح من أثرياء الحرب .

فلم أدهش حين رأته يشتري سيارة بالليلا ويسوقها بنفسه ، وقادته السيارة إلى الكابريه ، والكابريه إلى لوحظ الراقصة الساحرة فوقع فى دبابيها وتيمه غرامها وأهمل عمله وأخيراً دله ذكاؤه وفطنته أن أحسن حل يريجه من الانتقال كل يوم إلى الكابريه هو أن ينقل الكابريه ذاتها إلى غرفة نومه ، فيتزوج لوحظ ، وهى فتاة لها حسم - إذا غسلته - فتن العابد ووجه - إذا لم تغسله - آية فى الجمال ! فأنت ترى أن الحب ليس بالأعمى والأصم فحسب بل إنه أيضا مصاب بركام حاد .

قال صديقى :

- وانقلب بيتى جحيماً - فهى تظل طول نهارها فى قميص النوم ، حتى إذا حل المساء لبست ملابسها خرجنا أم لم نخرج ، فكننا نفطر طبيخاً وأنا أتناهب ، ونتغدى لبناً وشايا ، رأيت فى بيجاماتها جميع ألوان الطيف ، كل هذا ونجوم الظهر أيضا . .

ولم تكد تدخل دارى حتى هربت خادمتى العجوز التى لازمتنى منذ



قدومى إلى القاهرة لتطبخ وتغسل لى ، وكلفتى - أو أمرتى - لوحظ أن أبحث لها عن غيرها ، فجنّتها بخادمة لم تكدرأها حتى طرقتها وقالت إنها أعلم الناس بسوء أخلاقها (وقد سمعت فيها بعد أنهما متخرجتان من دكان مخدم واحد) وجئت لها بغيرها وبغيرها إلى أن دفعت فى معلوم المخدم فى أيام قلائل ما يزيد على أجر الخادم فى سنة كاملة ، وأخيراً هذان البواب إلى نعيمة ، وهى فتاة منكسرة ، لها صفيرتان طويلتان ، نظيفة كأنها خارجة من حمام ، مؤدبة كأنما نشأت فى بيت عز ، فرضيت بها لوحظ ولعلها اطمأنت حين رأت الصفيرتين وعلمت أن نعيمة ليست خادمة مودرن تترين بالأبيض والأحمر . . ورضيت بنا نعيمة كما رضيت بفراشها فى البدرم . -

ولكن الرعب تملكنى حينما رأيت نعيمة تعطف علىّ ، فهى تعد لى ثياب وتنظفها بلنة كبيرة ، وتقدم لى خيراً ما فى الطعام من لحم وفاكهة ، وكأن نظرتها تقول لى - إذا انفردت بى - (معلش يازهر !) أدركت قرب وقوع الكارثة من جديد وشعرت أن زوجتى بدأت تنظر إلى نعيمة بتلك العين التى خلقها الله لكل امرأة ، آه يا صديقى ! إنك لا تعلم - كما أعلم أنا - كم من البيوت بدأ خرابها بهذا العطف الذى يتولد بين الزوج المضطهد والخادم الشفوق ، لم أقرح حين رأيت بذور الغيرة فى قلب لوحظ إذ يقال أن الغيرة دليل الحب ، وأنا لا أومن بهراء علماء النفس حين يتحدثون عن الغيرة ، فهى شىء والحب شىء آخر ، وغيرة المرأة فى نظرى أشبه شىء بتلك العواطف السامية التى تمز القطة جسداً أو شعراً ومخلباً وأنياباً حين تمهم بأكل الفأر فتجد أمامها قطة أخرى . . خشيت أن تطرد نعيمة وتعود إلى القوضى ، فبت ليلتى - أوبقية ليلتى - أفكر حتى اهتديت

إلى حيلة جهنمية من وحى الشيطان .

بكرت ومررت على جميع دكاكين المخدمين باحثا عن سائق سيارة فقد ادعت لزوجتي أن عيوني متعبة وأعصابي منهكة وأخشى أن أقتل سائرا في زحمة شارع فاروق . . عرض على سائق شيخ أمين متواضع فرفضته، وآخر لمحت في عينيه الخوف والذلة والمسكنة فلم أقبله رغم تواضعه في طلب الأجر ، ورفضت ثالثا إذ رأيت على جبهته زبيبة الصلاة ، رفضتهم جميعا ورفضت غيرهم إلى أن اهدتني إلى مطلبني في أتم صورة تخيلتها ، شاب طويل عريض الكتفين، أسمر الجبهة - كما يقول عبد الوهاب . . بنطلونه رمادي وصديريته كناريا وربطة عنقه حمراء ، وشعره قد اندلق عليه حق بريانتين بأكمله . . نظر إلى بعين بجحة ، وابتسم فبانت له أسنان كبيرة لامعة ! وزاد فرحي حين سألت عن اسمه فأجابني (عسويك أنور !) إذ وجدت لاسمه رنيننا جيلا . .

فأخذته من فوري وسلمته سيارتي وأعددت له فراشا في حجرة بالبدرم تجاور حجرة نعيمة ، ونمت تلك الليلة وأنا مطمئن بأنني نجوت من الكارثة وأن عواطف نعيمة ستصرف عني إلى رودلف فالتينو . .

وبعد أيام قلائل عدت إلى داري فلم أجد سى أنور ولا سيارتي . . لقد نجحت خطتي في صميمها ولكنها لم تنجح في تفصيلاتها . . حقا لقد وقع أنور في غرام شديد دفعه إلى الحرب بعشيقته . . ولكن التي هربت معه لم تكن نعيمة ، بل كانت لواحظ زوجتي العزيزة وطارت مني نقودي وسيارتي ولعل علبة السجائر ، والقداحة هي أول هدايا له . .

لهذه الأسباب

وبعد سماع قصة صديقي أرجو من جناب الحكومة المصرية السنية
إجابة هذا الاسترحام والأمر لله من قبل ومن بعد .

دخلت المدرسة تلك لأنها قريبة من دارنا ولأن أخى الأول والثانى والثالث مروا بها من قبل ، لا أذكر أن أحدا طمأننى أو خوَّفنى منها ، فيما ينفع الحذر من القدر ، وقضت تقاليد الأسرة أن أرث عن أخى المنقول دفاتره وكتبه وهى خلاصة تركبتين سابقتين ، ففرحت حين وجدت كراسة الإملاء عندهم جميعا من صورة واحدة ، تنطبق فيها الصفحة على الصفحة ، بل الكلمة على الكلمة ، ونلت - مافى ذلك شك - (عشرة على عشرة) فى أول درس فلم أعدّها نوعا من الغش بل ميزة شرف سموت إليه عن جدارة دون بقية التلاميذ بفضل رسوخ الكعب وعزاقة النسب . .

ولكن فرحتى لم تتم ، لقد قذفنى إلى عالم مجهول ، وقلبى يدق من رهبته ، وأنا أقول له أليس مما يدعو إلى اطمئنانك قدومك على صديق قديم لأسرتك ؟ إن معلم اللغة العربية بنحوها . وصرفها سيلفك ، ولا ريب بالترحيب .

قرأ الشيخ عبد الباسط اسمى على الكراسية ، ثم التفت إلى وقال
بصوته المتهدج :

- أتكون من تلك السلالة عينها التى جاءنا منها فلان وفلان وفلان .

فأجبتة وقلبي يهش له وأنا فخور :

- نعم أنا والله منهم .

فإذا به يقول لى على مسمع من الفصل كله : - ما أشبهكم بالأرانب فى
وفرة النسل ، لا تمر سنة إلا رأيت من ذريتكم وجها جديدا . . ألا تنتهين
هذه الذرية ؟

وأشد الألم أن تأق الطعنة ممن يتوقع منه الجميل ، وزاد الحجل على
الألم ، شعرت أن فى كلامه تعريضا وقحا ، شعرت ولا أقول أدركت فانا
حينذاك صمى لا أعلم من أمور النسل إلا أنها أسرار عالم محجب ، وأنها
عيب فاضح ينبغى تنزيه اللسان عن ذكره ، ولكنى نسيت كل هذا فى فناء
المدرسة ونحن نجرى أو نكتظ كالفراريح المقرورة فى جوانبه المشمسة ،
وقد أقف أحيانا تحت الناقوس أحلم باليوم الذى يتاح لى فيه أن أدقه . .

ثم صحت يوم قيل إن مدرّس اللغة الإنجليزية قد نُقل وأن خلفه هو
عقرب أفندى . هبط على الفصل كله وجوم ، وزاغت منه الأبصار فلم يمر
علينا فى المدرسة وقت طويل حتى عرفنا الأساتذة جميعا لا بأسمائهم وحدها
بل وبنصبيهم من تلك النعوت التى تجرى على السنة التلاميذ ولا يعلم أحد
من اخترعها أول مرة ، فتبين أبلغ إبانة عن عادات المدرس أو عيوبه
الجسمانية والأخلاقية ، وتلحق أربابها وتلتصق بهم ، وتكاد ترى بالعين ،
كأنها الوشم لا يفارق صاحبه مهما تقلبت عليه الأحوال والأيام ، وقد ينقل

المدرس من قنا للمياط ويدخل الفصل وهو مطمئن فإذا بأذنه تلتقط همس التلاميذ بالتعت الذى ظن أنه دفنه بوادى الملوك .

كنا نعلم كل شىء عن عقرب أفندى - هو رجل قليل الكلام ، يدخل الفصل فيسير إلى منصته كأنه يجرى ، لا يلتفت إلى التلاميذ وهم واقفون - كالأصنام - (يضربون) له السلام ويثبت نظره على الفصل لحظة ، ينقر بإصبعه نقرة فيجلسون ، ثم نقرة أخرى فيفتحون الأدراج ، ثم نقرة أخرى فتتفتح الكتب على الصفحة المطلوبة ويبدأ الدرس . ولا بد أن يجرى كل هذا بحركة واحدة منتظمة كخطوات الجنود والويل لمن يتخلف ، لمن يسقط من يده غطاء الدرج .

سمعنا وصدقنا - والأمر لله - أنه يجبر تلاميذه على حفظ حروف الهجاء الإنجليزية طردا وعكسا ، وأنه يعاقب على أقل تلثم بالضرب بحد المسطرة على ظهر الأصابع وفى مستندة على غطاء الدرج ، وفى عز الشتاء ، وازدهار القشف ، وأنه يلوى الأذان فيتكوى على صورتها وهيئتها الوجه والجسم معا . سمعنا أن الكسالى يجلسون (ديزا) على ركبهم طول الدرس وأن (المحصور) لا يفوز وإن بكى بالخروج إلى المراض .

ودخل علينا عقرب أفندى لأول مرة فجمدت أعضاؤنا ، لم يقل لنا كلمة واحدة عما ينتظره منا ، ومع ذلك نقر نقرته فجلسنا ، ثم نقر ففتحنا الأدراج ، ثم نقر فأخرجنا الكتب ، لمعت عيناه بلذة الانتصار ورضى عنا . .

ولكن إلى حين . شط عقلى من الخوف فلم أستطع أن أحفظ دروسى

كما ينبغي ، فضربنى بالمسطرة على أصابعى المورمة من البرد ، ولا ينفع فى تسكين الألم إطالة النفخ أو دس اليد بين الفخذين ، جلست (الديز) ساعات قمت بعدها أمشى مشية المصاب بالروماتيزم . مرت دروس كثيرة وأنا واقف ووجهى إلى الجدار بجانب السبورة أمام الفصل كله ، وكدت أبول فى ثيابى مراراً .

كل هذه الآلام الجسمانية تزول بمر الزمن ، أما الرعب فما فارق قلبى ، ينام معى بالليل على وسادة واحدة . .

عقرب أفندى ! يرعبنى وجهه فقلما جرؤت أن أثبت عليه نظرى طويلاً ، أرقبه من طرف عيى وأظافره منهمكة فى نفخ لحيته الثابتة ، يتش الشعرة فيميل فكه الأسفل تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار ، ويضغط بلسانه على خده فيتكور شدقه ، ويرعبنى صوته النسائى . . ولكن الرعب كل الرعب تمثل لى فى مشيته ، هو جسم بدين على ساقين قصيرتين ، تتذبذبان - فى قيد خفى - بحركة متلاحقة سريعة ، كأنها ديبب بعض الحشرات ، أو كأنما هو شبح منفلت من حكايات الغول والعمارة . .

وظل عقرب أفندى يسومنا العذاب يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة ، إذ كان ينتقل معنا كلما انتقلنا ، إلى أن تركت المدرسة تلك وفى صدرى قلب شاخ وهو صبى .

ولعل عقرب أفندى هو وحده المسئول عن كراهيتى المتأصلة لنظام المدارس ، كسجن متحجر ، لا يهمل إلا حشو الدماغ بقشور لا تنفع وقد تضر . . درست رى الحياض وأنا لم أغادر القاهرة قط ، تلوت أسماء محاصيل لم ترها عيى ، أجبرت على أن أحفظ أن خشب التيك هو من بعض

صادرات بعض البلاد الإفريقية وإلى الآن لا أعرف ما هو خشب التيك هذا ، وعرقت طويلا - وما الفائدة ؟ - لأحسب زمن امتلاء حوض عليه حنفيان وفيه بالوعتان - هل رأيت عمرك خوضا مثل هذا الحوض ؟ - حفظت كالبيغاء إعراب (إذا) ولا أزال إلى الآن أردده ولا أفهم منه شيئا ..

هذه مدرسة تميت كل موهبة ، وتقضى على كل شخصية ، ولعل أكبر إجرامها أنها تشل اليد أيضا ، فهي معطلة لا يتنفع بها ، ولا عجب إذا كنت بسبب هذه الكراهية قد نسيت جميع مدرسى - ماعدا عقرب أفندى ! - كأن عيني لم ترهم قط ، كما نسيت جميع زملائي ، ونسيت أيضا كل ماتعلمته في تلك المدرسة .



قضيت الحلقة الثالثة من عمري وأنا غائب في أوروبا ، ثم عدت ، فروى لي أخى أنه يغالج أسنانه عند طبيب يعرفنى ، ويسأل عني ، ويقول إننا من أعز الأصدقاء ، إذ كنا متلازمين في المدرسة تلك ، وجلسنا في مقعد واحد في سنة ثانية فصل ثالث وأنه لا يزال يحتفظ بصورة سنة رابعة فصل أول وهو واضع فيها يده على كتفى ، سمعت اسم هذا الصديق العزيز فلم أجد له في ذهني أقل صدى ، وصفه لي أخى وصفا دقيقا فلم أتبينه وألح على أن أزوره معه لأنه مذ علم عودتي وهو يلحف في السؤال عني (ولعل أخى أراد من زيارتي له أن يكرمه بتخفيض الأجرة) وأنه يبدى التشوق لرؤيتي ، فرفضت .. ثم لا أدري كيف انقذت لأخى ذات يوم (ولعله كان من أيام آخر الشهر !) فوجدت نفسي في عيادة هذا الصديق العزيز ، وتصنعت أننى مشتاق إليه شوقه إلى .

لم يكدرانى حتى اندفع فى فقهه طويلة عالية عتر لها جسمه ، وتطلع
إلى بعينين يكاد يقفز منها الفرح وقال كأنه يتم قصة بداها بالأمس
فجسب .

- أتذكر عقرب أفندى ؟

- نعم أذكره .

- إذن فاعلم أننى كنت هنا ذات يوم فإذا بالباب يُفتح وإذا بعقرب
أفندى بشخصه وبذاته يدخل على ..

أصبح شيخا مهدما ، امتلأ وجهه بالأخاديد ، وشاب شعره هو فقير
يتصنع الستر ، جائع يشيد بمزايا الصوم ، وفى يده خاتم لو باعه لأشبع
بطنه زمنا طويلا . وقال بصوت مرتعش متقطع إنه مر مصادفة أمام الدار
وقرأ اسمى فلم تطاوعه قدماءه أن يمضى دون أن يصعد للسلام على تلميذه
القديم ، ونظر إلى بعينين يكاد يتفرق مؤهما من العطف والمودة والمحبة ،
فلم يتحرك له قلبى ، وأدركت أن كرمه مقدمة وأن وراء الأكمة مالقاه دائما
من الحرج فى طلب الأجر من الأقارب والأنساب والأصدقاء .. فلم يبق
إلا أن يضاف عليهم ، والمدرسون .. أيضا .. توقعت أن ينهى هذه
المقدمة بتذكيرى بالقول الكريم «عصا العلم من شجر الجنة» ولكنه لم
يفعل ..

رحبت به وأكدت عرفانى لجميله ، وحفظى لذكرى أيامه الحلوة ،
أومن أننى لولاه ما كنت شيئا ، ولم يخب ظنى وطفق يشتكى الزمان ويقول
إنه تعب من أطباء الأسنان لجهلهم وجشعهم . ففز قلبى سرورا ، وقلت

قد وقع والله في يدى وليس مجيئه لزيارة عابرة أو لتحية تلمينه القديم كما يقول .

كنت أستطيع أن أداوى لثته بالمس بالكهرباء ، ولكننى حين رأيت منصرعا بين يدي ، لاحول له ولاطول ، قد فتح فاه فأنهدت قواه وامتنع عليه الكلام ، ولم يبق له إلا الصياح لم أتمالك نفسى من تذكر أيامه السود ، وما قاسيته على يديه من الأهوال وتعذيبه لنا بلا ذنب جنيناه ، وقلت إن قدومه إلى برجليه لدليل على أن هذه الدنيا - مهما قيل فيها - لا تخلو أحيانا من العدالة ، وليصبر المتهم المظلوم فإن الزمن سيسير دورته ، فإذا به يحاكم من حكم عليه من قبل ، وحمدت الله إذ قُسمت لى مهنة طب الأسنان ، ولكننى ترددت قليلا ، أنتقم أم أصفح ؟ وأخيرا قلت إن الصفع يتاح فى كل وقت أما الانتقام فلا يتاح إلا مرة . وهذه هى مرتك فلا تدعها تغلت من يدك

قلت له : لا ينقذك إلا أن تخلع بقية أضراسك وإلا كان هلاكك بالبيوريا قريبا .

نظر إلى كالذئب العجوز قد سقط جريحا فى الشرك ، ربت على كتفه وأكدت له أنه لن يشعر بالألم ، وأننى سأعفى مدرسى العزيز من الأجر كله .

أسلم نفسه إلى ، وأردت أن أجعل انتقامى كاملا ، فلم أكثر من المخدر ، وتعمدت أن أقلقل أضراسه وأحركها داخل اللحم الحى قبل أن أنقلعها ، وكلما شدت يدى على الكلابة وأوجعته وأنا أخلع أضراسه تردد فى أعماق روحى صوت يقول :

- خذها من يدى جزاء مالفينا على يدك !

سال الدم من فمه كالصنبور ، وتأوه ، واصفر وجهه وأنا واقف فوق
رأسه أشعر براحة وسعادة عظيمة . .

أسرعت بالانصراف ، كأننى هارب ، وصديقى العزيز متشبث بى
يقول :

- أنا فى خدمتك إذا احتجت لعلاج أسنانك فى مصر . .
ياله مأفون أحمق ! أيجسبى أسلم له نفسى وأنا ضعيف الذاكرة
لأدرى لعل أسأته أنا أيضا فى يوم من الأيام .

(جريدة «أخبار اليوم» ، العدد ٣٧ ، ١٩٤٩/٧/٢١ ، ص ٦)

في السينما

قاربت الأربعين وأنا متمتع في روما بأيام حلوة في كنف صديق نبيل زكى النفس طاهرها ، لقيت في داره وعلى مائدته ، وفي رفقة أهله ومعارفه ، جوا من الطيبة والكرم ، تتعش له النفس ويهدأ الخاطر ، تعيش في ظله خادمة إيطالية بدينة اسمها «استير» هي التي تفتح الباب وترد على التليفون .

رأيتها لطول ترددى على الدار تتودد إلى ، وتسألنى عن صحتى وأخبارى قبل أن تنادى سيدها إلى التليفون ، وتلقانى على الباب بابتسامة حلوة ، وإن أنا انقطعت أفهمتى أنها لاحظت غيابى ، لم تستطع أن تنطق باسمى إلا بلهجة أعجمية قد تضحك وإن دلت عيناها على أن قلبها لا يتعثر كلسانها ، وأكبر الظن أنها حسبت أن بى شيئا من شرود الذهن أو نوعا من التلعثم . .

فما من مرة لقيتها إلا حاولت جهدى أن أحياها باسمها ، فلا أفلح ،

جاهدت كثيرا فلم أوفق ، أذكره أحيانا وأظل أكرره لنفسى وأدقه بمسامير من العزم والارادة فى ذهنى.، وقد ينطق به لسانى وأنا فى المصعد ، فإذا فتحت الباب طار من عقلى كأنه لم يمر به قط من قبل . وقد تشاء بعض الألفاظ إلا أن تتأبى على اللسان ، ونحن نحس على رغم هربها أنها كامنة فى أذهاننا ، مخبئة أو تائهة ، أما اسمها فكان إذا طار ترك فى ذاكرتى فراغا كأنه ضررس مخلوع .

والغريب أننى كنت أخطئ أحيانا كثيرة فأناديها باسم آخر ، وقد لاحظت فى شىء من الدهشة أننى إذا أخطأت لا أقع إلا على اسم واحد لا يتغير ، فأقول لها (كيف حالك ياسارة) ! . ولم أجد لهذا التلازم تعليلا إلا تشابه الاسمين .

وأرقت ذات ليلة وعادت إلى ذاكرتى أيام طفولتى وصباى فى جو من الغيم تزحف كسفة برفق عن يمين وعن شمال ، وأخذ ذهنى يقلب لى ما فيه من أحداث وقبور .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى دار صديقى وفتحت لى الباب فإذا بى أقول لها «كيف حالك يا استير؟» ومنذ ذلك اليوم واسمها لا يغيب عن لسانى .

نشأت فى أسرة تتعشق السينما ، رجالا وصبياناً ، لا يخرج حديث مائدة العشاء عن ذكر الأفلام القديمة والحديثة والقادمة وعن ترديد أسماء الممثلين فى إيطاليا وألمانيا وأمريكا ، والمقارنة بينهم . لا أشترك فى الحديث - لصغر سنى - بل تلتقط أذنائى بنهم كل كلمة تقال ، وأعتق آراءهم ، وأضحك لضحكهم ، وقد أروى بعض ما سمعت إلى زملائى فى المدرسة كأنه مما رأته عينائى .

وانتبهت فإذا بي أنتظر يوم الخميس بفارغ الصبر ، فهو اليوم الوحيد الذى يسمح لى فيه بالذهاب إلى السينما ، أترقبه منذ صباح الجمعة ، وأعد الأيام والساعات ، أريد أن ينفد العمر فيها كغمض العين .

فإذا جاء الخميس - مرحباً بغرة الأيام - تناولت غدائي مسرعاً ، وأنا قلق متلهف ، وأخذت ألح على أخى الأكبر لنخرج ولما تدق الساعة الرابعة ، وأسير بجانبه وأنا ألث ، أى ساحر سحرفى ؟ ليست هى دار السينما وحدها ، ولا الرواية ، ولا الممثل ، بل جو خليط من هذا وذاك ، وأجهة الدار بإعلاناتها وصورها الضخمة تكاد تنطق ، وأنوارها المتحركة ، والتزاحم على بابها ، وتلك الضجة العظيمة التى أسمعها ولما ندخل . «تقدم . تقدم» أقولها لأخى وأدفعه دفعا إلى شبك التذاكر ، ينعنى الزحام وقصر قامتى أن أتبين من يكون فيه ، ولكنى أعلم أنه وحده القادر على إدخالى .

هذا وجهى يحتك بثياب الحارس الواقف على الباب ، وتسمع أذناى بللذة طاغية صوت تمزيق التذكرة إلى نصفين ، لقد زالت العوائق كلها والحمد لله ، ندخل إلى الصالة فإذا بها سوق قائم ، أصوات متعالية ، وهتاف ، وصفير ، ونداءات باعة اللب والفول والكاكازوزة ، والكراسى من حديد لها مقاعد خشبية متحركة تنطوى بقوة إذا قام الجالس عليها فهى لا تنفك تقعقع كصوت المراساة تسير على الحصى والحجارة ، ثم تقف الصالة كلها وتلتفت هائجة إلى الوراء نحو الألواج لأن رجلا دخلها ومعه امرأة . . لا بأس . . ها نحن فى أول مقعد نلقاه ، وقد لا يرضينى فانتقل إلى غيره ، وأقيس مكانى من الشاشة وأحسب حساب من سيجلس

أمامي ، وأدعو الله أن لا يكون رجلاً عملاقاً طويل القفا ، ولقد شاهدت
أفلاماً كثيرة وأنا واقف على قدمي .

ويعر وقت يضيق به صدري . وأنا أتلفت إلى النوافذ أتربق أقل حركة
تدل على أن إغلاقها قد اقترب ، وأسأل أخى « ألم يحن الوقت بعد ؟ » .
وأصمت بأذن مرهفة إلى غرفة العرض فقد أضحت عليه بتلك الأصوات
الهيبة التي تنبعث منها فتدل على أن العامل قد (شرف) وأنه اخذ في تركيب
الفيلم . ثم أصمت يائساً متها أذن (ترسو) يضج ويدق الأرض بأرجل
تسحق قشر اللب والقول السوداني ، فأعجب بهم وأقول سراً (ياهم
من أبطال ، لا يهمهم شيء !) ثم يتقل التصفيق ودق الأرض -
بالعدوى - إلى (سكوندو) و (بريمو) فترتفع في نظري قيمة جيرانى . آه !
هذا النور سخي ، ثقيل الدم ، وأنا أريد الظلام ، ظلام يبدو جماله إذا
شق عمود من الضوء كأنه الروح في الجسد . اه يا فرحتى ! هذه هي
النوافذ بدأت تتحرك ، وهذا هو الجمهور كالبحر الهائج إذا خفت الريح
قليلاً ، وهذا هو الجرس يرن رننه المحبوبة ، أطبق الظلام وضاعت منى
الصالة والعالم كله ولم يبق في إلا عينان مسمرتان على الشاشة .

أحب أفلام الشجاعة والفروسية والمبارزة بالسيوف وركوب الخيل
تسابق القطار ، وقفز البطل من هذا الى ذاك ، وأحب كذلك الأفلام
البتولية ، وكلها دهاء ومكر ونصب فخاخ ! (وقلبى يشارك اللص
ويستخف بالشرطى) وجوه تملأ الشاشة وهي تضحك وتبكي وأين نرى
وجوهنا وعواطفنا بالميكروسكوب إلا في صالة السينما . ثم تظهر كلمات
على الشاشة العربية فتقرأها الصالة كلها بصوت عال كأنه هدير الأمواج ،
وبذلك يتقل المعنى إلى ذهني عنيفا متضخما . امتزجت حياتنا بالرواية

فكأننا نعيش مع أبطالها . فها نحن نصرخ للص أن يتبه للشرطى يذب وراءه ، ويغفلنا منه أنه لا يسمع تحذيرنا .

ما هذا ؟ هل انتهى كل شيء ؟ كيف مرت الساعتان ؟ إن قلبي لم يشبع . أحقا نقوم ؟ أضاع كل أمل في أن أرى أصحاب السينما يرق قلوبهم كرما فيضيفون على البرنامج فصلا مضحكا ؟ الجمهور متشبث بالمقاعد يهتف «لسه فصل ، لسه فصل» أسبوع بعد أسبوع وهم لا ينالون وطهرهم ، ومع ذلك فلم يحب رجائي في يوم من الأيام لأن أرى المعجزة تتحقق

أشدُّ يد أخى والأمل كله يتجسم في تلك الشدة ، فأجده يشدن ، وأفهم أن اليأس حتم لا مفر منه ، أراضى نفسى وأقول لها : أمامك الأسبوع القادم ، ثم نخرج ونسير تحت بواكى شارع محمد على مصعدين إلى الحلمية .

أسمع صوت (الماشات) في القهاوى البلدية و(وش) موقد كواء الطرابيش ونشيش الشواء على عربات اليد في باب الخلق ، وتصل إلى أنفى رائحة دكان بائع الفسيخ - وهى مقفلة - وأنا كالنوم ، كالحالم ، تبحث عيناي وأذناي عن شيء يأسرهما فلا تجد .



مرضت زمتا ، وخلت أن الحياة قد انقطعت عني لانقطاعي عن السينما ، ثم قيل لى قد دخلت دور التقاهة ، فقامت لساعتى ، عاصيا أبوى ، مقسما لها أنفى شفيت . . لم أجهل كم خميسا مر على ، أعدها

واحدًا واحدًا ، وأتحرق على الأجزاء التي فاتتني من (السلسلة) مع أني انتزعتها منظرًا منظرًا وحادثة حادثة أكثر من مرة من فم أخى الأكبر ولكن أين السمع من المشاهدة ؟ إن قلبي غير راض ولا مطمئن .

خرجت وحدي ، وكان العمر قد تقدم بي ، وفي جيبي ثمن التذكرة ، ونصف قرش لشراء اللب والفول ، ومشيت أكاد أجبرى ، وبلغت السينما ، ورفعت عيني إلى اللوحة فضقت وجمد الدم في عروقي وركبتني برودة الموت ! يا للخيبة ! ما هذا الحظ السيء ؟ أبعد الصيام الطويل أفطر على بصلة ، كنت أصبحت خبيراً بالسينما ، أكاد أميز الأفلام جيدها ورديثها - في مذهبي - من رؤية الصور المعلقة في مدخل الدار . وقد تنحصر نزهتي بعض أيام الجمع في المرور على جميع دوز السينما واستعراض صورها والظفر بما استطعت من برامجها المطبوعة فإذا لم يتيسر لي دخولها فلا أقل من أن ألم بها ، وأطوف حولها ، وأتحسس أنباءها وأحلم بأسرارها ..

ووقعت مرة في مأزق (قُرِصت) منه . دخلت السينما عجلاً في يوم وأنا لا أعلم أنه يوم عيد عند المسيحيين أو اليهود - لا أدري - على أية حال هو عندهم عيد حزين ، فإذا بالقيلم قصة دينية مستقاة من التوراة كلها لت وعجن ، وحركات ثقيلة ، وسحن حزينة ، ورعاة يَبِّتة سماجتهم ، طويلة عصيهم وقفاطينهم ولحاهم ، وأغنام ونعاج ، وامرأة عجوز تتطلع إلى السماء طويلاً ، وشيخ يبارك قوماً قد جلسوا القرفصاء . . ليس فيها لص واحد ، ولا مبارز ، ولا مطاردة ، ولا قطار ، ولا جياد ، فشربتها وخرجت ساخطة يا لله ! لماذا نسوا ما شيست وشارلي شابلن ؟ إن هذا عذر لا مسوغ له ، وظلم وقلة ذوق وسماجة . . وكان اسم الفيلم (سارة)

تذكرت سارة وأنا واقف أتذوق مرارة الغم ، اذ رأيت السينا تعلم
أنها لمناسبة عيد الفصح قد قررت وقف السلسلة لتعرض بدلها في تلك
الليلة وحدها الرواية الدينية الكبرى (أستير) .

لست أنا الذى ألدغ من جحر مرتين . لا لحصافتي ، بل لخفة
جيبى . . . أستير ! ما أسمع هذا الاسم وما أبرده ! فليقل الفيلم إنها تدخل
الجنة أما أنا فأراها جديرة بالجحيم . . .

وانصرفت يائساً غاضباً وأنا أجر رجلى جراً ، كنت وحدى ولا أجزؤ
على دخول دار غير تلك التى اعتدت أن أدخلها الا إذا كان أخى معى . .
وأخذت أعود القهقري في شارع محمد على تحت البواكى . لا أسمع
(الماشيات) بل أستير ! أعوذ بالله ! ولا (وش) موقد كواء الطرابيش . بل
أستير ! من أين طلعت لى هذه المرأة ؟ ولا نشيش الشواء ، بل أستير ! تبا
لها وسحقا . دكان بائع الفسيخ مفتوح ومع ذلك لا أشم رائحته . . ونفذ
المقت إلى قلبى قطرة قطرة حتى ملاء ، كرهت أستير واسمها كرهاً
شديداً ، ونمت وقلبي يلوك هذا الكره .

(مجلة الثقافة ، ٣٣٤ ، ١٩٤٩/٥/٢٢ ، ص ٢٠ - ٢٢)

الدرس الأول

لدسونس :- القرية الصغيرة - محطة صغيرة تنام بعيدا عن البلدة وسط الغيطان ، جوها هادئ وديع معطر بأريج النبات ، وأرصفتها قصيرة غير مُسوّرة ، تلاحقها عيدان الذرة ، تسير بجانبها قطعان الجاموس والبقر ، وجرسها الذى يدقه الناظر كلما أذن القطار بالقيام متواضع الصوت خافت الرنين ، كصوت صغار الديكة .

تمر بها قطارات فخمة فتعزأ بها ولا تقف ، تهز الأرض وتملأ الجو صفيرا يتمثل فيه الفلاح هيئة الحكومة ، وتترىث عندها فى فترات بعيدة قطارات قد ينزل منها راكب ، وقد يحل غيره محله ، ويعاود القطار سيره تاركا وراءه سحابه من دخانه .

ولكن لا هذا ولا ذاك يحرم محطة دسونس من هدوئها . فمن تأسره الغيطان الشاسعة لا تقدر على استخلاصه منها قوة أخرى . لذلك فإن لمحطة دسونس عقلية القروى ، هى ساذجة لا تألف ولا تفهم سر هذه

القضبان السود اللامعة التي تحترقها من بحرى إلى قبل ، لا يعرف لها مبدأ ولا نهاية ، طريق سحرى يؤدى إلى كل وطن ، ولا يضل فيه مسافر ، يخيل إليك أن أكشاكها الخشبية وأرصفتها القصيرة تحثّق بخوف في هذه القضبان وتتضاءل أمامها كالقطة التي أشلها ثعبان .

إذا قرب ميعاد قطار ، استفاقت المحطة من نومها شيئاً فشيئاً ، تستيقظ على رنين جرس ضئيل يدق مرتين في البلوك ، فيقوم أبو داود إلى التليفون ويحيب أن الطريق خال ثم يعمد إلى مفاتيح (السمافور) ويجذبها إلى صدره واحداً بعد واحد ، فإذا وصل إلى (سمافور المسافة) أخرج من جيبه منديلاً محلواً كبيراً ، وانحنى ، ثم ثبت قدمه في الأرض وجذبه جذبة قوية تبعث الدم إلى وجهه وتحرك في عرق منه مرضاً خفياً . . وإن رأيت ذراع السمافور - على بعد كيلومتر من المحطة - يثنى ، فاعلم أن أبا داود قد نجح ، وأن قواه قد خائته ، وأنه مرتم على مقعده يمسح عرقه . .

وإذا نزل السمافور فعندئذ - لا قبل ولا بعد - يتحرك العم خليل من كشكه ويمد سلسلة المزلقان ويشير إلى جمهور الفلاحين أن ينتظروا مرور القطار . أما المترجلون منهم فينحنون ويمرون تحت السلسلة و(يزوغون) منه ، ويستمر الراكبون فوق دوابهم ويعلمون تدميرهم :

- يا عم خليل لسه بدرى على القطر !

وجرت العادة أن العم خليل لا يتنازل ويجاوبهم ، فإن زادوا في إلحاحهم نشر أمامهم علماً أحمر ووقف لا يتحرك ، ولكنه لا يلبث أن يسمع مرة أخرى من نواح متعددة :

- يا عم خليل خيلنا نفوت النوبة دى .

وعندئذ يجيل نظره ويختار شخصاً يكون قد حضر لساعته لم يسمع هذه المحاورة ، ويقترّب منه ، دون أن يلتفت إلى بقية الواقفين ويقول له وهو غير مبال بما يدور على وجه المستمع له من دهشة يخالطها الطاعة :

- أنا موظف حكومة أفهم الأصول ، أنت مش فاكّر الحمار اللى داسه الوابور وجه فيه جزا عشرة أيام للخفير اللى قبلى ؟ أنا مسئول ، وانتم مالكم ؟ تفوتوا وخلاص والحكاية تفضل فى رقبتي .

وإذا أوشك القطار أن يظهر أقبل ناظر المحطة حلمى أفندى يهرول على الرصيف وقد تدلى كرشه من جاكته ذات الأكمام المقصبة ووضع قلباً رصاصاً على أذنه .

وبعد أن يمر القطار تعود محطة دسونس مرة أخرى لنومها العميق ، نعم خليل يستوى على مقعد سواطىء فى كشكه يقرأ "دلائل الخيرات" ، وأبو داود يجيل إلى النافذة وتأخذه يسيئة من النوم حتى يوقظه جرس آخر ، وأما الناظر فقد يقصد منزله القريب ويختفى به ، إلا إذا ناداه التلغراف بضرباته القوية المتكررة الملحة التى تأسر سمعك أردت أم لم ترد .



أنت تعرف هذه المباني التى تقيمها مصلحة السكك الحديدية لموظفيها بالمحطات الصغيرة ، طابق واحد من الطوب دون طلاء فى شكل مستطيل ، ضيق العرض ، حجره متشابهة صغيرة .

فى مثل هذا البناء ولد يوسف حلمى وألف وهو فى المهد رجة الأرض

وصفير القاطرة واصطدام الحديد ، وحينما استطاع الوقوف على قدميه كانت أمه تأخذه إلى نافذة خلفية وتمسكه من طرف جلبابه ، فإذا انتفع بحريته الضئيلة وأطل وجد تحته قطار البضاعة يروح ويحيى بمناورة ، وراء المنزل ، واستنشق دخان القاطرة دون أن يرهبه منظرها ، وخيل إليه أنها مخلوق عجيب ، كبير الجسم ، أسود اللون ، ينقاد لسبب ما لرجل معفر الثياب متسخ الوجه واليدين .

وحينما اشتدت ساقاه وخرج أمام الباب كانت أمه تسلمه إلى أبيه ليتبخر معه - هذا بجسمه الضخم وذا بجسمه الضئيل - على الرصيف ، ولكن الزمن أخذ يفصل أيديهما المتشابكة ، واستقل الصغير بحركاته ، وجاوز الرصيف إلى كشك القم خليل حيث وجد جوا وديعا ومحبة لم يجدها من أبيه .

كان حلمى أفندى ناظر المحطة شغوفاً بترتيب منزله والاعتناء بداره ، له موهبة خفية تجعله مريباً ناجحاً للحمام والأوز والدجاج ، إذا دخلت داره وجدت وراء الباب أقفاصا معلقة يحبك منها حمام أليف يهديله المحبوب ، من يبنى وهزاز ، وترى أوز حلمى أفندى نظيفا سمينا يسير الهوينى إلى مصرف قريب ، يستحم ويعود ، وإذا أخذ دجاجة فى يده لم ترهبه ، ولا ينزلها إلى الأرض إلا إذا جاءها - ولا تدرى من أين ، بقطعة خبز يفتتها لها أو حفنة من الشعير ينثرها أمامها . إذا استفاد مبكرا خرج إلى مشوى الحمام والأوز والدجاج يفرق عليها الطعام بقدر معلوم ويرى نتاجها الجديد ، ويغير ماءها ، وينظف مسكنها ، لعلك تعذره بعد ذلك إذا أهمل تربية ابنه ، لا يذكر يوسف حلمى أنه آنس من أبيه جلسة دامت

أكثر من دقيقتين أو قبله تعقبها أختها ، بل لا يلبث أن ينزله إلى الأرض ويربّت على ظهره ويتركه كأنه يقول :

- أنت وشأنك في هذه الحياة .

وكان الصبي يلوذ بأمه وحنانها ولكن أمه بمزاجها الأثوى لم تكن تشفى غليل الرجولة التي بدأت تطالبه حقها منذ أن استطاع الاستقلال بحركته ، وهي فوق ذلك حبيسة دارها. ووراء وعلى بعد خطوة واحدة وهي عتبة الباب حرية الرصيف الطويل الذي يتختر فيه جيئة وذهابا . . . أليس هذا هو اليتيم بعينه ؟ . . .



العم خليل سودانى ، أمه مصرية ، تتجلى فيه عادات أهل السودان وتشبههم بقوميتهم كأنها دين لا يقبل المناقشة ، فهو نظيف في ملبسه ، متأنق في مأكله ، في أخلاقه حدة ، يحقر الفلاحين ، ويقرأ «دلائل الخيرات» ، بصوت مرتفع حنون ، ثم لا تنس هذا العطر الغريب الذى يستقبلك إذا اقتربت من سودانى ولذلك إذا أقبلت على كشكه استروحت منه النظافة والطيب ، وأدركت أنه يلوذ به فرارا من مخالطة الناس . وقليل منهم من يدرك المأساة التى قاساها العم خليل ، فقد تزوج فى صباه من فتاة من أسرة عربية تحب الخيل ، زواجا كاملا الطقوس ، فوجدها زوجا عفوفاً تحمص عفافها وشرفه ، ثم ولدت له ابنه الوحيد وماتت فى حمى النفاس ، ولما بلغ ابنه السادسة لحق بأمه وتركه يبكى مرارة الوحدة .

وذاث يوم مال يوسف حلمى إلى المغامرة وجاوز الرصيف فكانت مغامرة سعيدة إذ أنها قادتة إلى اكتشاف كشك العم خليل ، ولما وقف أمامه نظر إليه السودانى برهة ثم أخذه من يده وأجلسه بجانبه على مقعده الواطئ ، فتنفس يوسف من طيبه ، وشعر بيد حنون فوق كتفه ، ورفع بصره إلى وجه مملوء بالغضون وعينين وديعتين ، وعمامة بيضاء نظيفة ، وضحك الصبى وبدت نواجذة فلم تلبث الغضون أن انبسطت ، وابتسم الرجل وقام الصبى واعتلى الرصيف وعاد جريا إلى منزله .

كان الصبى فى ذلك الوقت فى سن السابعة والرجل فى الحلقة السادسة وكان الصبى قد بدأت أسنانه الأصلية تثبت فى فكيه واحدة بعد أخرى وكان الرجل قد بدأت أسنانه تسقط واحدة بعد واحدة ، وكان الصبى لا يفهم من الحياة سوى رصيف المحطة وكان الرجل قد عرف حلوها ومرّها . ومع ذلك ففى هذه الفترة الضئيلة التى مكثاها معا بالكشك اتصل قلباهما واستحكمت بينهما عرى عاطفة قوية ، لم تكن من جانب الرجل عاطفة أبوة ، ولم تكن من جانب الصبى عاطفة بنوة ، لأن تعطش الصبى للحنان الذى حرم منه وتقرح قلب الرجل لفقدانة متعة حياته أوقفهما موقفا متكافئا ، كل منهما يأخذ ويعطى ، كل منهما ضحية قدر قاس ، ولذلك نشأت بينهما ثقة ومصلحة متبادلة وعرف قلباهما معنى الصداقة الحلوة . . هذا - للأسف - فى وقت متأخر ، وذاك ، للأسف أيضا ، فى وقت مبكر .

وظل يوسف بعد ذلك يحتقد أن الدنيا تنتهى بكشك العم خليل متمثلة فيه السعادة والود ، حتى وصل إلى سن الثامنة وحيثئذ طالب عريف

الكتاب في البلدة بهذا الجندى الجديد ، فعرف أن للدنيا نهاية أخرى يتمثل فيها العذاب .

ولكن غيبته بالنهار ساعدت على غو الصداقة بينه وبين العم خليل ، الذى يهيمه قبل كل شىء أن يكون فى عمله خالى البال لا يشغله أحد ، وكان إذا عاد يوسف من الكتاب يدخل منزله ويضع لوحه ودفائره ويأخذ لقمة محنة بالجن ، ثم يخرج يقضم منها جيئة وذهابا على الرصيف ، ثم يهبط إلى كشك العم خليل ويتعب سمعه بتلاوة ما حفظه ، فيغنى له بنعمة هادئة ، ثم ترتفع :

والدين لا تلعب به لعب الصنّالج بالأكر
حافظ عليه فإنه نعم المررب فى الصفر

ثم بنعمة تبدأ مرتفعة وتنتهى خافتة :
نظف حجرة النوم ، لا تأكل الفاكهة غير ناضجة .

ثم بنعمة متزنة متكررة سريعة :

الرأس ، الجمجمة ، الوجه ، الشعر .

وقد تختلط هذه النعمات «بدلائل الخيرات» وقد تمر بعض القطارات فيهلل لها يوسف ويرغمى فى أحضان العم خليل .

ومرت سنتان استظهر فيها يوسف جزء عم وشيئا من جزء تبارك ، ووصل فى الحساب إلى القسمة البسيطة وفى القراءة إلى نهاية كتاب التهجد

والمطالعة وكان وصل في تقدمه إلى أول صف وأصبحت الدروس تكرر الا
جديد فيه . إذن ثم ماذا ؟

أما أبوه فلم يفكر في الأمر لأنه منشغل بتربية الأوز والدجاج والحمام
ولولا أمل الأم أن ترى ابنها ينافس ابن سلفتها فيكون تلميذا له بذلة
وطربوش ، ولولا العم خليل تأخذه الحدة لإهمال صديقه ويكرر على سمع
الناظر حديثا يحفظه ويقدسه (اطلب العلم ولو في الصين) لما أصبح يوسف
حلمى يكتب الآن تحت اسمه (معاون إدارة) .

وحمله أبوه مضطرا إلى دمنهور حيث قيد اسمه بمدرستها الابتدائية بعد
نجاحه في الامتحان ، إذا حدثك محدث عن حياة الدراسة ما ألذها وفترة
الصبا ما أحلاها فإن يوسف حلمى لا يحدثك عنها إلا حديثا كله ألم .

ها هو صبي صغير ، فى بنطلونه الذى يكشف ركبتيه ، وجوربه
الممزق ، وجاكتته التى تبرز مرفقيه من أكمامها المثقوبة ، وطربوشه حائل
اللون ، قصير الزر يتأبط من ناحية كتبه ، ويعلق فى يده الأخرى منديلا فيه
رغيف ، يقف مستعدا على الرصيف منذ الساعة السادسة صباحا فى انتظار
القطار رقم ٤ ليحمله إلى مدرسته بدمنهور .

إنه للآن يذكر هذا الرقم ويتشام منه ويمقته ، وفى الشتاء تستقبله
السماء بأمطارها فيلف طربوشه بمنديله ويصل لمدرسته والوحل لركبتيه ولا
يعود لمنزله إلا بعد العشاء ، لذلك كان يوسف حلمى ينتظر يوم الجمعة
بشغف شديد لأنه اليوم الذى ينفرد فيه بالعم خليل فى كشكه ، ويجلس
بجانبيه ويحس بالدفء والحنان فى جواره .



في يوم من أيام شهر فبراير القارس البارد كان إصلاح الشريط قد اقترب من محطة دسونس فازدحمت بعمال الدريسة ، ينامون تحت ألواح الخشب القديم الذي يخرجونه من تحت الشريط ويكومونه عششا صغيرة ، يأكلون جميعا من زكية واحدة فيها بتاو . وإذا ذرَّ قرن الشمس هبوا من نومهم واحتل كل منهم مكانه ، عارى الجسد ، في سروال أبيض متسخ ، رباطه يتدلى إلى الأرض ، كلهم سمر الوجوه ، تقاطيعهم صافية وأيديهم خشنة ولكن أذرعهم قوية وظهورهم كالمطاط لا يؤذيها الانحناء المستمر ، وإذا بدأ العمل وانهلوا على الشريط بضرب متقطع ، ثم لا ينتظمون إلا إذا غنى لهم أحدهم من وسط الصفوف :

على حسب وداد قلبى يا بوى
على حسب وداد قبلبى يا بوى
وأنا كل ما أجول الزين سلامات

فتردد الصفوف في صوت عال مرتفع (يا بوى) وتزداد ضربتهم قوة ، ويسرهم انتظامهم معا بالضرب في وقت واحد فينسون العمل الشاق حتى إذا جلسوا في فترات الراحة خمدت قواهم واستراحوا على الموايل التي يغنيها أحدهم عن البليتا ومزاتة وناعسة وبنات عبد الله فيحن كل منهم إلى وطنه . . يشربون الشاي عكرا كالجبر ، وجوههم كالخجر الصلد ، أذرعهم من حديد ، ظهورهم تحمل الأثقال لا تتوجع . وإذا أتى المساء التفتوا حول نار ومالوا بوجوههم عليها وقد يمد أحدهم ساقه فوق اللهب كأنه يقدمها شواء وماذا تفعل النار في طبقات (القشف) المتراكمة فوقها وبعد أن تتطاير منها ذرات ملتبهة ييدها بساقه الأخرى

وإذا مر قطار فخم خفف من سرعته وسار الهوينى فيقف ركابه وراء
النوافذ ينظرون السبب وعندئذ يتبادلون هم والعمال نظرات استعراضية
سريعة الغناء .

هؤلاء رجال جالسون على الأرض ، يسطع لهب النار على وجوههم
فتبدو في لون أحمر ، وتختفى في الظلام بقية أجسامهم، ضجيجهم مرتفع
ونظراتهم جائعة ، يحدقون في الركاب كأنهم يرون أمامهم مخلوقات
غريبة ، وقد يخيل إليهم والركاب يمرون أمامهم كل منهم وراء نافذة ،
صامت لا يتكلم ، أنهم يرون أشباحا ليست من هذه الدنيا .

وهؤلاء الركاب يلقون عليهم نظرة سريعة عابرة ، وقد ينسى
أحدهم ، وهو مأخوذ بأريج المزارع ونقيق الضفادع ونسيم الليل ، أن
يلتفت إلى هذه المخلوقات التي تدور بوجوهها معه تصطاد نظرتة ، وكثيراً
ما يحدث أن يضحك أحد الركاب لسبب من الأسباب فتقع ضحكته موقعا
عجيبا في سمع العمال ، فينطلقون هم كذلك في ضحك سريعة
عدواه .. ويعاود القطار سيره ..

كم تأفف العم خليل من رائحة الحلبة والبصل والعرق يتصاعد منهم
كأنها بخار أتون ، وغلبه الوهم بأن أسرابا من القمل قد اقتحمت كوخه
واحتلته فأخرج مقعده الخشبي إلى الشمس وغسل الكوخ بالبترول وأطلق
فيه البخور السوداني وظلت رائحته تملأ خياشيم صديقه الصغير أياما
طويلة .

وجاء العمال بلافتة حمراء وضعوها في المكان الذي يبدأ عنده إصلاح
الشريط ليهدئ القطار عندها سيره ، ووصلت إلى الناظر إشارة تليفونية

بالتنبية على العم خليل أن يلزم هذه اللافتة ويركب كل قطار يمر حتى
يرشد السائق إلى إنتهاء الخلل في الشريط .. هذه هى التعليمات التى
ينبغى للموظف أن يطيعها وإن لم يجد لها ما يبررها .



مازال يوسف حلمى يذكر إلى اليوم هذا الصباح البارد المحتجة
سماؤه وراء سحب كثيفة ، جو أشهب اللون يخيل إليك أنه متقبض حزين
دامع العين .. وقف يوسف - كعادته - فى مكان من الرصيف ينتظر
قطاره ، ولكنه رأى سمارفور طريق الإسكندرية يثنى ، ورأى العم خليل
يخرج من كشكه ويمر عليه ويقول له وهو سائر «لف ودانك بمنديلك من
البرد»

وبعد قليل وصل العم خليل إلى اللافتة الحمراء ثم ظهرت على بعد ،
عند تلاشى القضببان ، نقطة سوداء أخذت تتضح وتتضخم شيئاً فشيئاً
فإذا هى قطار ، رأى يوسف ذراعه وهو يبط إلى الأرض ويرتفع ، ثم رأى
العم خليل ، حين وصل القطار إلى اللافتة ، يقفز إلى سلم القاطرة ويده
علم أحمر ، ويعاود القطار سيره ببطء تنبعث منه سحابة أثر سحابة من
الدخان وكان قطار بضاعة لا يقف على محطة دسونس ..

واقترب القطار ، لما بلغ مكان يوسف ، قفز العم خليل يريد
النزول ، ولكن ثبا وشحقا للقدر ! هل يعرف الإنسان نصيبه ومكتوبه ؟
قفز العم خليل وانزلت رجله وهوت بين الرصيف والقاطرة ، فسقط ،
وامتدت يده إلى الرصيف تريد أن تعتمد ولو على موت آخر .. ولكن قوة
أعظم جرتها إلى الأرض ، فسقطت متشنجة الحركة ، بارزة العروق ،

وخلال لحظة طائفة رأى يوسف وجه صاحبه يتوسد الأرض فاغراً فاه يكاد
يسف التراب من شدة الألم ، جاحظة عيناه كأنها رأت الجحيم الذى كانت
تخشاها طول حياتها .

أين وجه العم خليل الطيب وعيناه الوديعتان وعمامته النظيفة من هذا
الوجه الأغبر المتشنج من شدة الألم وعمامته التى مزقتها القطار وأحالتها أشلاء
متناثرة .

واستمر القطار يجر الجثة معه ، حتى خرج بها من الرصيف وقذفها فإذا
هى تسقط متباعدة الذراعين أمام الكشك المعطر بالبخور السودانى ،
وظلت الجثة خرساء لا تجيب نداء المأوى الذى يحن إلى صاحبه .

ولما جاء قطار يوسف دفعه أبوه إليه دفعا غير رقيق ، لأنه كان يود أن
لا يذهب للمدرسة فى ذلك اليوم .



وفى الدرس الأول دخل المعلم الفصل وكتب بأعلى السبورة ماخط
الثلث :

إنشاء عربى . .

ثم كتب تحته بخط رقعة .

فوائد المسكك الحديدية .

وبدأ يشرح للطلبة فوائد المسكك الحديدية ، ثم أمر الفصل بالإبتداء
فى الكتابة فامتدت أربعون يدا صغيرة بالأقلام إلى الدفاتر وابتدأ أربعون

ذهنا ناشتا في التتقيب ، وكتب أحدهم (عن فوائد السكك الحديدية ، وما أدراك ما السكك الحديدية) وكتب ثان (خلق الله الإنسان . .) وكتب ثالث (يجرى القطار بقوة البخار فيقوم من بلد إلى بلد دون أن يتعب في ذلك أحد) .

وتحركت الأيدي وسمع للأقلام صرير إلا يد واحدة يمضي الوقت وهي مستقرة فوق دفتر صغير ، لا تتحرك ، وكان صاحبها شاحب اللون زائغ البصر يتجه بوجهه كله إلى معلمه أينما سار بين الصفوف كأنه يريد أن يستفسره أمرا أو يفضى إليه بخبر ولكن خيل إليه أن أستاذه ورفقاءه قد نسوه فجأة ، فهم لاهون عنه ، لا يشعرون بوجوده بينهم وأنه غريب عنهم .

ومضت الحصة ولم يستطع أحد أن يسجل ما يعتلج في قلب هذا الصبي إلا دفتره الأبيض .

صحوة !!

الخمر وحدها هى التى تجمعنى وهذه الحلقة من تابعيها المريدين لايزيدون عن أربعة أو خمسة ، من مهن متباينة وأعمار متفاوتة ، وجيوب عامرة وأخرى غير عامرة . قد لا تتقاطع فى الحياة مسالكنا ، وقد لا تشابه فى بقية الليل والنهار طبائعنا ، ولكن إذا حان الغروب والتفتنا حول الكؤوس ، زالت من بيننا الفروق وتوحدت الأمزجة وربطتنا صداقة قائمة ما قامت الزجاجة ، وتلك - لو علمت وكنت قنوعاً - نعمة كبرى

كلنا نشابه فى الفرار من الحانات وضجيجها وفى التأفف من عريضة السكارى والعياذ بالله ، ولهذا فنحن لا نجتمع إلا فى دار من تقع عليه النوبة من أفراد الحلقة . ويقدر ما تكون خلوتنا نائية عن الأنظار ، فى مأمن من الدخلاء والغرباء - وإن كانوا أعز الأصدقاء خارج الحلقة - يكون مزاجنا فى عز سلطانه ، «وكيفنا» على أتمه .

لا أريد أن أتمادى فى وصف اجتماعاتنا حتى لا يزل لسان فيشبهها



بحياة الحيوان الذى يعيش تحت الأرض ينبش عن الديدان ، قد يكون لحم الديدان أطيب اللحوم ، ولكن أية لذة فى طعام يؤكل خفية فى الظلام ونور العين فداؤه ؟ فهل الذى يجمعنا فى الخلوة ويضم شتاتنا حول الزجاجة ، وهل الذى يفر بنا من الخلق ، كل هذه مظاهر لداء واحد : هو إخفاق كل منا فى حياته ، فهو يستعين بالخمر ليستسيغ مرارته على مهل ، ويلجأ للوحدة ليخفى عن الناس خجله .

إذا توافى الخلان وملئت الكأس الأولى ثم الثانية وانحدرتا لاتذوق لهما الخلق طعاماً ولا يعتدل بهما مزاج ، أخذ الحديث ينسلت شيئاً من تكلفه وتفككه إلى انطلاقه وحريره ، وهو عروج أرواح مغلولة ، لا تلبث أن تفارق الأرض وتحوم فى أجواء صافية نائية . وإذا ذاك يقع كل منا عند صاحبه على ناحية من خلقه لم يكن يعهدا فيه من قبل ، فليس شىء كالخمر يفض أفعال الشفاء ويبين عن خفايا السرائر .

هذه الأفكار لاتزال تدور فى رأسى اليوم بعد هذا الاعتراف العجيب الذى سمعته بالأمس من رؤوف . وهو رجل أنوف . لا يفارقه الوقار والرزانة . هو ساقينا ومحدثا وأكثرنا إخلاصاً للكأس . مائدة الخمر فى غيابه أكل وشرب ، وفى حضوره طقوس ومراسم وعبادة ، كأنما لبنت الكرم معبد هو كاهنه ونحن نأتم به ونصلى .

لا أدري ما الذى جر للحديث بالأمس إلى الموازنة بين أخطار الخمر والميسر والمرأة . وهى حلقات فى سلسلة واحدة . زجرنا الخمر قليلاً ، ثم برأناها سريعاً . وهاجم أحدنا - وهو أفقرنا - الميسر ، ونسب إليه وحده خراب البيوت وسقوط الزوجات ، وانقطع الحديث برهة ، فإذا برؤوف يقول فى صوت أجش حزين :

- بل المرأة ..

كنا قل أن نتحدث عن النساء ، وإذا ذكرناهن فيالسوء وبالإنتقاص والذم . ولكن لهجة رؤوف كانت تنطق عن قلب موله معذب .

- إذا أقبل الرجل على المرأة بعد نهار متعب بمشاغله ودسائسه فمدّت إليه يدها أو هيات له شفتيها أو أذاقته من أفانين ما تعلم أو تجهل من دل النساء ، هدّت إرادته فإذا هو في يدها خرقة متخاذلة تحركه كيف نشاء ، ولو قالت له اسرق لسرق ، أو اكفر لكفر . والضعف بين يدى المرأة هادم للرجل هدمة لا قيام له بعدها . فهو أسيرها بالليل والنهار ، في حضورها وفي غيبتها ، وفي وفائها وفي غدرها . وكم من سر دفين باح به الأمين عليه في ساعة نشوة بين ذراعى امرأة .

وصمت رؤوف وأخذ يحديق فينا بنظرة اختلطت فيها المראה بالضحك ، والكبرياء بالتسليم ، وقال :

- هل تصدق أنني «سُرقت» يوما ما ، لاحبا في المرأة ، بل انتقاما من المرأة ؟

- لما أردت السفر إلى فرنسا لإتمام دراسى اشترط على أهلى أن لا أقيم في باريس .. مدينة اللهو والفجور ..

هكذا كانت عقلية آبائنا .. كأنما اللهو والفجور لا يجلان على الانسان حيثما حل . ذهبت إلى ليون ومكثت بها ثلاث سنوات ، منصرفاً عن الدراسة . مقبلا على اشباع جوعى القديم للمرأة ، ولشد ما دهشت حينما رأيتنى أصاب بالتحمة سريعا .. وبدأت أتنذوق نبيذ بوردو .. ولما

قرب ميغاد عودتى إلى الوطن بدأت أعد الهدايا لأفراد أسرتى ، ولى أخت عزيزة علىّ ، فاصطفيت لها ساعة يد مرصعة بالماس ، ودفعت فيها مبلغاً طائلاً ، لا أذكره الآن وإن كنت لأزال أحسن لذعته ، وقلت فى نفسى .. كيف تغادر فرنسا ولا تودع باريس ؟

نزلت فى (بنسيون) فى إحدى ضواحيها ، بعيداً عن حى الطلبة ، لم تكن حجرى أنيقة ولا الطعام شهياً . ولكنى بقيت فيها لأننى لا أحب التغيير والتبديل ، ولأن مدموازيل بلانش ابنة صاحبة البنسيون سحرتنى سحراً شديداً .. أعاد إلى تلهفى القديم على المرأة .. وظمئى الشديد إلى الحب . إذا تكلمت ضحككت نظرتها ، وأطبقت جفניה وفتحتهما فى حركة سريعة ، كنت أشعر بانتفاضة أهدابها كأن طائراً مضطرباً ينفض جناحيه فى قلبى .. دعوتها أول ما دعوتها إلى الأوبرا فى المقاعد الأمامية ..

وأغلب الظن أن هذه الفتاة الفقيرة ذهلت من البذخ الذى اندفعت فيه ، فلازمتنى ملازمة كنت أحسبها لوجه الله ، أو صادرة عن عاطفة صادقة .. اشتريت لها ثوباً للسهرة وأخذتها إلى أكبر مطاعم باريس وفنادقها .. وأشرفت نقودى على النقاد ، فأبرقت إلى أهلى بأننى أضطرتت إلى السفر إلى باريس لاستشارة أخصائى كبير وطلبت منهم أن يسعفونى بمبلغ كبير لئلا ينتقل السل إلى الدرجة الثانية أو الثالثة .. كل هذا والفتاة تتمتع علىّ وأنا سعيد بتمنعها ، وقد حسبت أننى وقعت على فتاة شريفة ليست كسائر من عرفتهن .. ودخلت حجرى يوماً تحمل إلى طعام أفطارى وقالت :

- يامسيو غؤوف . ألا تعلم أن اليوم عيد ميلادى .. لم أتركها تغادر

الحجرة حتى قمت من فوري وفتحت حقيتي وأخرجت الساعة العزيزة التي كنت أخبرها لأختي المحبوبة ، وقدمتها إليها وقلت :

- عسى أن تعجبك هذه الساعة فإنني اشتريتها من أجلك . ما من رجل يقدم هدية لامرأة إلا وقف بين يديها كالتلميذ بين يدي أستاذه ينتظر بعض عبارات الشاء . عانقتني ، وأهدتني إلى شفتي قبله بين الطويلة والقصيرة ، ثم همت بالخروج فاستوقفتها وقلت لها :

- لا يزال لي عندك رجاء صغير .

- ما هو ؟

- نتعشى الليلة في مطعم ..

ازبكت قليلا ، إذ كان هذا المطعم لا يقصده إلا العاشقون وأدركت أنها فهمت غرضي ، وفرحت عندما رأيتهما تحييب :

- لك على ذلك يامسيو غزوف .

آه لو كنتم تدركون كيف تكون الراء غينا حلوة جميلة من فم هذه الفتاة . وهذا الإبدال البسيط كيف يذيب القلب ويلهب الدم ويأسر الروح ..

لاتزال بلانش أمامي تحرق في الساعة وتتأملها وهي في معصمها وتقول :

- ولكنها لا تليق إلا مع ثوب السهرة وسأحتفظ بها في خزانتي ..

ثم وضعت يدها على الباب تهم بالخروج فإذا هي تترث قليلا وتلتفت إلى وتقول :

- سأؤخر ميعاد لقائنا قليلا لأن أمي سترسلى لزيارة خالتي هذا المساء . . فليكن لقاءنا إذاً أمام المسلة في ميدان الكونكوردي الساعة الثامنة مساء . .

قبل الموعد بنصف ساعة كنت أمام المسلة وفي قلبي عُصّة من آثار مصر المسروقة ، وحل الموعد فلم تأت ومضت نصف ساعة ، ثم ساعة ، وأنا واقف أعلى على نارين : الغيظ والحجل . ما ألتنى الانتظار بقدر ما ألتنى أن وقوفى واضطرابى وقطعى دائرة المسلة ذهابا وإيابا ينمى عن شاب غر سناج ضحكك عليه فتاة بموعد مكذوب ، أهم بالانصراف فلا تطاوعنى قدماى ، وأجرهما فترسخان فى الأرض ، ونزل المطر رذاذا فاحتملته ، وقرصنى البرد فصبرت له . وأخيرا يشت ، فإذا هذا الشاب الصحيح المعافى البشوش الضحوك يرتد عن المسلة شيخا متهدما يائسا ، قد كره الناس وسثم الحياة . هرعت إلى حى بيجال - حيث اللهو والمجون - وأنا أنوى أن أسكر سكرة ساقطة وأعربد عريدة صاخبة ، فلا يقوى على طرد هذا القبح من نفسى إلا قبح أشد منه مرارة وعنفاً . . شربت كثيراً ، وكان شرابى من أردأ الخمر . ودعوت إلى مائدتى امرأة عجوزا درديسنا . ولا أدرى إلى اليوم كيف احتملت قبيلات قمها الأهتم . ثم توهجت بى الحمى وأخذت القلق والضيق يطبقان على أنفاسى ، فقامت أبحث عن الهواء والسماء . . وأخذت أسير على مهل ، فإذا حانة صغيرة خيل إلى أن وراء نافذتها شبحا أعرفه ، وقفت أحرق إلى إليه فإذا هى والله المدموازيل بلانش بعينها بين ذراعى خالتها . وخالتها شاب من البحارة قد استسلمت لضمه وأمالت رأسها على كتفه .

وقفت ذاهلا زمنا لا أدرى أطويل هو أم قصير ، وبدت لى سذاجتى

عارية وحماقتى سافرة ، وساورتنى رغبة شديدة فى الانتقام لكرامتى . ولكن ماذا أفعل ؟ وفجأة وخزنتى ذكرى الساعة الجميلة التى كنت اصطفتيتها لأختى العزيزة المحبوبة ، وقلت حرام أن تكون لمثل هذه المخادعة الخائنة .

أسرعت إلى سيارة وأمرت سائقها أن يطير بى إلى البيت وصعدت السلم جريا ، وفتحت الباب وتسلمت بحذر إلى مخدعها وأنا أعلم أن أمها العجوز فى حجرتها تغط فى سباتها . هذه هى الخزانة . . فتحتها وأخرجت ما بها من الثياب وبعثرت زجاجات العطر ويدى ترتعش وتنفسى مضطرب حتى عثرت على ساعتى المنشودة ، فوضعتها فى جيبى ، وأصلحت حال الخزانة ، ودلفت إلى ججرق على أطراف أصابعى . وما كدت ألقى بنفسى على الفراش حتى غمرنى نوم عميق . فقد شعرت أن جبال هملايا كانت جاثمة على صدرى فانزاحت عنه ، وأنى صرعت فى ميدان القتال ألد أعدائى . فهبطت على السكينة وغمرنى الاطمئنان وانبدملت جروحي . . .

وانطلقت من رؤوف ضحكة عميقة مكتومة زلزل لها صدره كأن صخور جبال هملايا كانت لا تزال تتساقط عنه .

- وفى الصباح المبكر قبل أن تستيقظ المدموازيل بلانش كنت قد أعددت حقائى ودفعت حسابى وانطلقت من الدار إلى المحطة إلى مصر لم أختلف لحظة واحدة فى مكان ما .

وإلى اليوم لا أدري هل فهمت أختى العزيزة تلك الابتسامة المجرمة التى طغت على شفئى وأنا أناولها الساعة وأقول :

- عسى أن تعجبك هذه الساعة ، فقد اشتريتها من أجلك !

حصير الجامع

وجدت العملة أمام داره في جمع من الناس فأسرع وتنازل لي عن دكته ، ولكنه لم يتركني أجلس حتى عاد أحد الخفراء ومعه بساط فرشه لي العملة بيديه وهو يقول :

- شرفت بلدنا يا حضرة المفتش ..

لاحظت أنني قطعت حديثا يتفكهون به ، بدليل الابتسامة المنتشرة على وجوههم ، ورأيتهم يتوجهون ببصرهم إلى الصراف وهو جالس على الأرض بجانبه خرجه ودفاته ، وفي يده ورقة طويلة عريضة يطبقها .

وكان أول من أعاد الحديث رجل عجوز يلبس زعبوطا يكشف عن صدره :

- وبعدين يا مقدس خليل .. كمل لنا قرايتك .. قول ..

فصرخ فيه العملة :

- فضنا .. إحنا دلوقى فى إيه ولا إيه .. خلى فى عينك نظر ..

سألت الصراف :

- إيه الحكاية ؟

فناولنى الصراف الورقة ، نشرتها فوجدتها إعلانا كبيرا من وزارة الزراعة عن أوصاف طاعون الدجاج ، والاحتياطات التى يجب أن تتخذ لمقاومته (حصر الدجاجة المريضة ، ورش الأرض بالجير ، واستدعاء الطبيب البيطرى فى الحال ، وأنها مستعدة بلا مقابل لتشريح جثة أية دجاجة ترسل إليها ، وأن فى مخازنها حقنة ضد هذا الطاعون ثمنها عشرون ملياً ..)

التفت إلى العجوز ذاتہ :

- يا حضرة البيه .. عشنا وشفنا الفروج ينضرب له إبرة ..

ضحك الجميع بسرور ، وفهمت من تطلعهم إليه واستقرار الأنظار على وجهه ، ومن استعدادهم للضحك لأقل ملاحظاتہ ، أنه فى الغالب عجوز القرية المعروف بدعابته ، تلك الشخصية التى نلقاها فى معظم أنحاء الريف ..

وعاد للكلام :

- هى الفروج بى آدم ؟ السنة اللى فاتت شكوى إبرة قعدت فيها عيان جمعه ، اشحال الفروج يابوى !

تطوع الصراف للدفاع عن وزارة الزراعة ، فهو الموظف الوحيد بينهم ، صحيح أن العملة موظف مثله ولكن لاتنس أنه بدون ماهية !

ونظر إلى - وعينه تطوف بالجميل - يفهم أن دفاعه يشملني
أيضاً ، فهو - مع بقية الجمع - (لأنه في الظاهر موظف ، وفي الصميم
فلاح) لا ينسى ، أو إن شئت لا يغتر لي شرف الانتساب للحكومة ، أنا
«ولدها» فلم لا أكون مسئولاً عن كل تصرفاتها ؟ ..

أوسعت نظرتي ما بيني وبين الجمع من قطع شعرت به واضحاً منذ أن
بدأ هذا الحديث .. هم أهل البلد ، أدري بأمورهم ، وأنا الموظف ،
لا يهمني - مادام بعيداً - أي خبط يتحكم به فيهم .. ولما تكلم الصراف
رأيتني يعدل عن الدفاع إلى ما هو أسهل وأشهى لديه ، إلى التهمج على
الشيخ الثرثار :

- بس لو كان عندك كتكوت واحد ، بلاش بقول فرخة ، كان يبقى
لك حق تتكلم ..
لم يجبه العجوز واستمر يقول :

- يعني الفرخة خفت والا ماخفتش ، مش ح تتاكل ح تتاكل ؟
توما تمل رقبته الواحد يدبجها ويخلص ..

- والله لو كانت في إيدك عمرها ما تهون عليك .. تبقى نفسك
فيها ، ومش هابن عليك تدبجها ، مستخسرها في نفسك . وفي الآخر
تاكلها فطيس ..

- بلا فلحسة فارغة .. أنا في الحكومة اللي مستتية لما الناس تبعت لها
زعم فراخ معفنة .. عل إيه الخوة والتعب ، تيجي بلدنا وأنا أسلمها ولا
ميت فرخة ملقحة في السكك ..

ولعل العملة خشى أن يطول لسان العجوز ويزيد ، فصرخ فيه
ليرى سلطته ومقدار ذكائه فى فهم الحكومة وروح أوامرها :

- يا شيخ درويش ! ماتفهم ! .. عقلك طخين ليه ؟ .. ما انتش
عارف شغل الحكومة ؟

على أننى كنت طول الوقت مزجع الرأس ، لا أدرى أمن تعب المشوار
لم من ضربة الشمس ، أصابنى غثيان ، وبدأت أعرق ، فى الجونتانة
غريبة ، طول حياتى لم أعهد رائحة خبيثة كالتى كانت تملأ خياشيمى وأنا
جالس لا أستقر على الدكة ، قمت بتشريح جثث منيعجة ، وفشت على
اصطبلات عديدة ، ولكن كل هذا هين بجانب العفونة التى كادت تزهر
روحي .. زاد تملطى ، وأخرجت متدلى ووضعته على أنفى فما أفاد ..
تلفت الى جلسائى فما وجدت واحدا منهم يشاركنى الشكوى .. كلهم فى
هدوء .. يكلم أحدهم الآخر كأن الدنيا بخير .

لم أتمالك نفسى وسألت العملة :

- يا عملة ! .. أنا شامم ريحة مش كويسة ..

- لا مش حاجة .. أعمل ايه ؟ والجامع بحرى البيت ..

وأشارت يده بخركة سريعة أرئت على بعد من المنزل وفى نهاية ساحة
متسعة أمامه جامعا صغيرا له مثذنة بيضاء قصيرة ..

- لكن مش كويس كده ..

- فى ايه ؟

- مش دا جامع ؟ دا اسمه بيت الله ..

+ بس ولا مؤاخذه الواحد ساعات يستقر به .

وشعر العمدة أنه تورط ، فعاد يبرىء نفسه ويرمى التهمة على غيره :

- الواحد لما يصلى فيه يبقى معذور . . ساعات الواحد قبل الصلا
يجب يفك عن نفسه علشان ما ينقضش الوضوء قوام ويصلى به فرض
كمان . . ولكن تقول إيه فى الفلاحين . . الكيمان كثيرة حوالين البلد ،
ما يحلاهموش إلا الجامع . . يدخلوا فيه علشان كده وبس . . تحوش فى
مين ؟ زى البهايم . . الله ينحيهم . .

- يعنى ما فيش حد بيصلى فيه ؟

- لا فيه . . الإسلام بخير . . بس الجمعة والعيد أكثر من بقية
الأيام . .

لم أقم حتى نُفِذت تعليمات المركز وعلّق إعلان طاعون الدجاج على
باب غرفة التليفون لمن يستطيع فى البلد الأمد أن يقرأ ، وإن قرأ أن يفهم
أوامر وزارة الزراعة . .

وكان من حسن حظى أن بنى رزىق على حافة الجبل ، ولذلك اخترت
مكانا بعيدا عن المساكن ونصبت فيه خيمتى وبقى الخيام ، وفى الصباح
بدأ المستشفى رقم تسعة المتنقل للأنكلستوما عمله . .

وكان أكبر سعادتى أن موقع المستشفى بحرى الجامع !



مكثت فى بنى رزىق ما يقرب من ثلاثة شهور وأنا كل يوم أرى العمدة
وشلته ، لم أملك نفسى أن أراقبه عن قرب ، وألاحظ كل حركاته

وأقواله ، فهو وحده الذى استلفت دونهم نظرى . . فالشيخ درويش - العجوز الثرثار - كان كثيراً ما يضحكنى ويسلينى بسخطه على الزمن الحاضر وبعضاته فى الناس ، ولكنه يزول عن ذهنى بمجرد أن يسلم ، وشيخ البلد رجل ساذج ، يخيل الى كلما رأيته أنه قائم من النوم ، قلما يجلس على الدكة دون أن يسند رأسه على إحدى يديه ، ويشئ ركبته ويضع عصاه بين رجليه . . إذا لم تعجبه كلمة «طرزق» بلسانه على سقف حلقه وعدل رأسه على يده الأخرى ، له فى بعض الأحيان حدة فجائية تجعله يتلعثم ويكرر الكلمة الواحدة مرات عديدة ، ثم يبرد ويضحك ضحكة تنتهى بسعال .

أما العمدة - فعلى العكس منهم جميعا - رجل «غويط» يوحى منظره بأنه كثير الاحتراس ، يجتهد أن لاتنم حركاته وأقواله عن نيائه وأغراضه . . الناس عنده رجل ضعيف يبحث عن إحدى الوسائل لاستغلاله ، أو قوى يعمل جهده على تحاشي أذاه ، بشرط أن لايفهم هذا أنه فريسة ، أوذاك أنه استغفل . . ولكن طمعه هو الذى يكشفه دائما . . بل لعل السبب أيضا هو خوفه وجبنه . تجده يبدأ الكلام ثم يصمت قليلا ليرى أين وقع غرضه ، فى هذا الوقت وحده تفوته الثقة فى نفسه وتبدو الحيرة فى عينيه ، فإن نجح اطمأن ، واستفاض فى القول والحركة ، وإن صدم طوى شراعه الى أن تطيب الريح . .

كان يزورنى فى المستشفى ويسألنى هل يلزمنى شيء ؟ هل يستطيع أن يقدم لى خدمة ما ، هل أنا واجد من يغسل لى ملابسى أو يطبخ لى ؟ ثم قبل أن يقوم يوصى على بائع لبن - لأنه لايفش - أو على أحد المرضى لأنه من أقربائه .

لم أكتشف سره الا بعد أن تركت البلد ، فقد علمت حينئذ أنه كان يكذب علىّ ، وليس بين الذين أوصى عليهم أحد من أقربائه وإنما هم بعض الفلاحين المترددين على المركز في ذهنهم فكرة الوساطة لا يتنازلون عنها ، فاستغلهم العمدة لقاء أجر معلوم . . ومن يدري ؟ ربما أفهمهم أنه يشاركني فيه . .

على أن أخلاقه لم تتبين لي الا بعد أن أثبتت مسألة حصر الجامع ، أخذني مرة لصلاة الجمعة في الجامع إياه . . فليس في البلد غيره . . لما دخلته وجدته متساقط الطلاء تتدل من جدران العناكب ، على كل من جانبي المنبر علم أخضر سواده مطاطيء رأسه للفقير والمسكنة . . القذارة بادية والهواء مكتوم ، والحصر عيدان متفرقة تبدو منها الأرض مغبرة ، عليها تراب هش متماسك تكوّر الزطوبة . . وعندما ركعت وقعت عيني لصق بقعة كبيرة بدت لي متضخمة الحجم ، وأظنا بقعة أخرى ، إن لم تكن قملة أوبرغوثا ، هي التي قرصتني في رجل .

وأخترمت عند ذلك في رأسي فكرة كنت من قلة التجربة أننى نفذتها . . فقد علمت أن هذا الجامع لا يتبع وزارة الأوقاف ، وأن العمدة - وهو أغنى أهل البلد - يتولى الصرف عليه . . فيعطى الإمام مرتبه : أردبين أذرة في الموسم وجنيه واحد ، لأن الإمام بدوره يستأجر أرضا ويتكسب منه ، ثم يقبض يده ولا (ييز) بمليم واحد . .

قلب للعمدة ونحن خارجون :

- أنا لو كنت منك وأحب أكسب ثواب صحيح كنت كسحت المرحاض واشتريت للجامع حصر جديد . . ليه ماتعملهاش ؟ إنت قدها وقودود .

لم أزد على ذلك شيئاً . . على أن هذه الجملة كبرت فيما بعد ولبست ثوباً من التقرير والتهكم على أهل البلد كله ، فلم تقص ليلة حتى دعاني العمدة الى داره - لأننى ما «عُتبت» منزله ، وكل جلسائنا على الدكك أمام الباب . . فوجدت جمعا كبيرا ، على وجوههم الكثير من الجسد والاهتمام . . كان الوقت وقت عطش القطن ، فلم يجد العمدة صعوبة فى جمعهم . . لم أكد أجلس حتى تكلم :

- حضرة المفتش دلوقتى له فضل كبير علينا . . وكلمته ما تنزلش الأرض . يقول إنه عيب عليكم تخلوا الجامع بالشكل ده . . ما يصحش منكم أبدا . . ما فيش فى قلوبكم إسلام ؟ ما كانش عشمه فيكم كده . .

وهكذا وهكذا والجميع ينظرون إلى جامدى الوجوه ، ليس فى نظرتهم - وأقول الحق - غضب أو تملل . . ظللت برهة أظن أن سبب طاعتهم أن ملاحظاتى فى محلها ، جمعتهم ، لأنها - فأنا غريب عنهم - لا تثير ذكرى نار أو حقد دفين .

أما هذا التقرير فكم مرة سمعوا ما هو أقذع منه فتركوه يدخل أذنهـم اليمين ليخرج من أذهنهم اليسار ولا يعكر مزاجهم ، ولكن شيئاً خفياً جعلنى أذكر فجأة إعلان وزارة الزراعة ، فوضح لى فى اللحظة ذاتها معنى كان منبهما يتردد فى ذهنى ولا أتبينه . . وانتبهت الى أن شعور الجمع وهو حوالى هو بئينه ما كان يجول فى نفوسهم عندما قرىء عليهم الإعلان . . هناك ضحكوا لفكرة حقن الدجاجة ، وهنا صمتوا لأن للجامع حرمة . . وما عدا ذلك فالأساس واحد : خليط من الريبة والاستخفاف وشيء من الرضا 'نغتصب وطاعة كلها تمثيل كاذب . .

هذا الشعور هو قوام مجاوبتهم لكل تدخل في أمورهم . من يقدر سوء حظهم لأن كل المحاولات تأتي من أجنبي عنهم - حكومة أو موظفاً - لا يفهمهم ، يعيش في واد وهم في واد . . إن لم يكن غرضه ملء جيوبه ، اقتصر في تدخله على التافه الغث السخيف ، وترك ما هو لديهم قرين الحياة ومشتلزماتها . . مرة عن جثث الدجاج ، ومرة إحصاء الناس فرداً فرداً ، ومرة إحصاء الزرع شجرة شجرة وعوداً عوداً . . يحقنهم سنة وجاموسهم سنة . وفوق ذلك استدعاءات ومشافير وأوراق ومحاضر لا تقدم ولا تؤخر . وآخر صبرهم موظف مثل لا تزيد إقامته بينهم أيام ، لا يتركهم إلا إذا خرج عليهم «بغلب» جديد . . كان الجامع لم يعيش طول عمره بينهم بخير لا يتنبه له أحد . . لم ترتفع منه شكوى . وما الذي سيفير تنظيف الجامع في حياتهم ؟ لن يعلو ثمن القطن أو تنقص ديونهم مليماً واحداً ولو دهنوا جدرانهم بالذهب وفرشوا أرضه بالقضبة . .

وانتهى العبد من تمهيده وبدأ يتمهل في الحديث وهو يدور بوجهه عليهم . . هو يقترح عليهم أن يتبرع كل منهم بما يقدر عليه حتى يشتري للجامع حصيراً جديداً . .

تلكاً الجميع في مبدأ الأمر ، واحتج واحد منهم أنه لا يصل في الجامع وربما لم يدخله منذ شهور ، واقترح ثالث أنه لا يجب فرش كل الجامع مادام أنه لا يمتلئ ويكفى نصفه ، وتكلم آخر عن المقاس والأسعار ، ولكنهم انتهوا جميعاً بالموافقة . . فجاء الصراف بورقه ودوانه وبدأ يكتب وهو جالس القرفصاء .

هنا قال الشيخ درويش :

- انت حطيت إيدك فيها يا مقدس خليل ؟ والله ما هي فالحة ..

فضج الجميع بالضجك ، وساعد هذا المرح على فتح نفوسهم ،
وتوالت التبرعات ، تبدأ من خمسة قروش ولا تزيد على العشرة . وفي لحظة
التفت إلى الجمع كأنهم ينتظرون منى كلمة ، وفي ضمت شامل سمع الكل
صوت :

- ومنى ريال .

لم تكمل الحلقة حتى كان مجموع ما تبرعوا به يزيد على ثلاثة جنيهات
شيئا قليلا .. وانتظرت إخراج النقود فلم يضع أحدهم يده في جيبه .
وأدرك العملة ما في فكرى فقال :

- طبعاً يا حضرة المفتش الدفع بعد المحصول ، انت عارف الفلاح
دلوقتي ما حلتوش اللضا .. المزارع حاجة و«الميرى» حاجة ..
وخرجت منه كلمة «الميرى» كأنها حسرة ! ..

انتبه الكل لها .. وثبتوا نظرتهم على ، كل عيونهم انتظار وتطلع ،
شعرت أنني أجتاز امتحانا وركبتنى الحيرة : هل أؤجل الدفع مثلهم فيقال
انتهاز الفرصة فضن بماله وهو غير معذور ، أم أدفع فيكون انفرادى بالغرامة
دليلاً على طراوة عظمى وقلة تجربتي وسهولة انطوائي تحت بلف العملة
«وتباتيكه» ؟

في مثل هذه الموقف يركبني الخجل ولا أدرى ما أنا فاعل ، ورغم
شعورى بأن الدفع سينقص من قيمتي كرجل في نظرهم ، ما انتهت الا

ويلبى فى جيبى ، ثم خارجه بين أصابعها الريال ، ثم لامسته يد العمدة ،
ثم يذوب الريال عنها وتعود خاوية . .

أفهمنى الصراف بعد ذلك النظام المتبع بين الفلاحين ، فأول من بدأ
الكلام وأكثرهم تبرعا هو أكثرهم (تكليفا) ، وتلاه الذى بعده وهكذا . .
كل منهم يعرف دوره لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

انصرف الجميع وبقيت مع المقدس خليل . . وقبل أن يودعنا العمدة
بثنا شكه :

- أهو كل واحد رقع كبايه شأى ، وان دفع بعد كده أقطع ذراعى . .

هذه الملاحظة ، نصفها غيبة ، هى التى جعلت الصراف ، ونحن
نسيرا الى الحيايم . يستأمننى على دخيلة نفسه :

- الراجل ده شوف غنى . . أكثر واحد فى البلد عليه تكليف ،
وبرضه يستنى لما يشحت من واحد غلبان بالقرش والمليم علشان الجامع !
وقلما يغتاب شخص إلا ويؤكل لحمه من ورائه ! . .

غلبنى النعاس تلك الليلة وأنا أسائل نفسى هل جاء دفع الريال
عرضا ، أم كان فى ذهن العمدة عندما بدأ الحديث ؟ ربما رمى شبكته على
بقية الجمع ، وربما كنت وحدى الصيد المقصود ! . .



مرضت ولغمت بأجازة . .

لما عدت لبنى رزق كان الفيضان على الأبواب . أين ثروة الغيط فى

اللون والعطر ؟ تعرى كما تسقط حلقات الشعر وتنكشف الرأس
جرداء .. لم يبق إلا حوض جاف ، كله قبح ، عليه شبكة من الشقوق لا
يحميها البصر .

أهى عطلة لازمة ، كبرهة تنفس ، تستعاد بعدها القوى ، أم هو
موت أصيل بعد حياة عارضة ؟ هنا وهناك جذع من حطب القطن معرى
الجانب أو على رأسه جلدة ذائبة .. فيد الفلاح إن لم تقو على نزع العود
قصفت .. وكان حمارى يتخطى هذه الجذوع ويتحاشاها جهده ، يستأمن
محافره من بين الشقوق مكانا ، بين الحين والحين ، تحونه الأرض وتهدم
تسد الشق ، فيهوى مؤخره وتتقوس أرجله .. ولم ينج من العذاب إلا
بعد أن وصل لبدأ مدق لايزيد عرضه على الشبر ، يتعرج ايضاضه وسط
السواد .

وجدت الأهالي في هياج مكتوم ، جاء للبلد بعض تجار القطن
واشترؤا المحصول فامتلات الساحة أمام دار العمدة بحلقات جالسة على
الأرض يتحاسبون ولا ينتهى نزاعهم إلا على يد الصراف يقسم لهم القرش
الى بارة ودائق ، ويوزعه على ١٤٤ حصة .. على وجوه الجميع حدة ،
لأرجلهم عند المشى ضغط على الأرض ، كلهم مسرع هنا وهناك .

انتهى زمن الصبر والتطلع والتدين .. كان هذا في زمان مضى ..
عندما كان في حجر الفلاح حفنة من بذور ميته كالحصا (ولو أن يده لاتقع
على حبة منها الا وارتسمت في ذهنه شجرة تكاد تحمط للأرض من ثقل
حملها) .. بين البذرة والشجرة شوط طويل ، كثير العراقيل ، فالقطن ذو
آفة ، ملعون .. يدفن الفلاح البذرة وقلبه وجل : هل تنبت أم تتعفن

وتموت ؟ ومرجع هذا ليس إليه بل الى الله . . يقف بين يديه خاشعا . .
كله رضا . . قناعته لا تمجد . . لا يطلب - الآن - إلا شيئا واحدا ، أن
يبهها الله من نفحاته حياة تجنبها شر ظلمات الأرض وترهبها النور .

ويخرج منها بضيق أخضر ، ساق هش مترف ، تتعلق به ورقتان
رقيقتان . . يحمد الفلاح ربه ، ويرمق النبات مشققا ، لو حل الصقيع
ذوى فى طفولته ، أوهب الريح ارتقى صريعا ، قد يورق ، وقد يذبل ،
لله مرة ثانية التفاته ودعاؤه ، يارب ! - وكله تضرع - دوام نعمتك على
عبدك الحامد الشاكر ، أمله وثقته فى رحمتك . . لو باركت للعود الزقيق
فاستغلظ واشتد ! يصبح الساق اللين عودا صلبا ، وتتشعر حوله الأوراق ،
فهذا وقت شبابه ، تنفسخ له أزهار كالكوؤس ويضوع شذاها .

ولكن ما تفعل قوة الشباب أمام الآفة المهلكة ؟ كم من شجرة فى عز
بهاؤها صوّحت وظلت وسط الغيط كالكسيح المقعد ؟ يا إله العالمين - وكله
استكانة - هذا صنع يديك قاحرته . . من فيض كرمك منه بالنماء ومر
اللوز ينبثق !

إذا تحقق رجاءه نسى الفلاح الشجرة وقصر اهتمامه على ثمارها .
هل تفتتح أم يغيبض ماؤها وتحمر ؟ . . إلى الله من جديد ،
يا مولاي - وكله عبادة ! - هذه المرة أيضا ، أنا بين يديك ! . .

وهكذا دورا بعد دور كان الله عنده أحد الأحكام يستطيع أن يكرر عليه
ويستدرجه خطوة خطوة إلى تنفيذ أغراضه ، فهو ما يكاد المحصول يتجسم
أمام عينيه حتى ينسى خشوعه وخضوعه . . لا يقف جشعه عند حد . . لا
يكفيه من الماء إلا ما تخوض فيه ساقاه ولا تمتلئ عينه ، لا يهمنه أضر زرعه

أم أفاده .. عينه ليست على الله ومعونته ، بل على أسعار البورصة
وأخبارها .. تتيقظ في نفسه روح المناجزة والمصادمة .. يقف على رأس
غيظه وليس أسرع منه للعداء والهجوم .. يجرسه بالنهار واقفا ويديه نبوت
، وفي الليل راقدا على بندقيته ، يسعل بين حين وآخر ليجاوبه زميل مخف
بطلق في الهواء ..

لا يلع ريقه إلا إذا دخل الكيس منزله ، وعند قبض الثمن تربكه
النقود ، ويختار ماذا يدفع وماذا يبقى ، ولا يستفيق إلى نفسه إلا وهو صفر
اليدين .. كما بدأ انتهى .. الأمر لله .. على أن يكون اللقاء مع
المحصول الجديد !



لم أقابل العملة ، فهو ينزل للبندر كل يوم «ويفاضل» على المليم وحق
«القبانة» على من تكون . لما رأيته بعد ذلك وجدته عطشا يكرع من الماء ولا
يرتوى ، كلامه أعلا نغمة وحركاته عصبية ، جند كل الخفراء لتحصيل
المتأخر له ، وأطلق بعض أتباعه ينامون على أكياس القطن يحجزونها بالقوة
إلى أن يسدد الإيجار ..

ومكثت برهة متردداً ، أعتقد أن العملة أدرك ما يجول بذهني إذ
شككت في صدقه وهو ينادى خفراء ويرسلهم في حدة مفتعلة واهتمام
موهوم ذات اليمين واليسار .. منذ متى هذه الهمة ؟ في نظرتي إلى شيء من
اللولم والتفريع .. ألا أميز فأرى أنه جم المشاغل ليس لديه وقت لتضييعه
في استرضاء أهواء موظف مثلي ؟ أين الحماسة الملتهبة والحث على التبرع
من برودته الآن واستصغاره للأمر ، كأنني سأحدثه عن لهو أو العوبة ..

شيء من العناد وحب الاستطلاع لمعرفة مدى مراوغته جعلنى - رغم
تهربه - أواجهه بسؤال :
- تم إيه فى الجامع ؟

لاشئ .. فليس هو وحده بل كل أهل البلد مشغولون فى أعمالهم
لا يجدون وقتاً يهرشون فيه رؤوسهم .. كان الله فى عونهم ..

لما فارقتة شعرت أنه أسرف فى نفسه إصرارى وأضمر أمراً .. وكنت أنا
الخاسر .. فقد أخذ - بعد ذلك - يلاحقنى فى المستشفى ويزورنى صباح
مساء ، يشكولى نكول أهل البلد عن وعودهم وإنكار أكثرهم الاشتراك فى
التبرع .. والباقى يتهربون منه ، وقد يرسل الخفير للرجل منهم أربع
مرات فى اليوم الواحد فلا يظفر بمليم .. اعتذر بعضهم بالإفلاس وأقسم
آخرون أنهم خرجوا من الموسم مدينين لشوشتهم ، وأطلق العبدلة العنان
لحدته ، وخطط أحاديث الجامع بالأزمة ووقوف الحال .. هل أصدق أن
شيخ البلد اختبأ فى داره وأنكره ابنه ، ومع ذلك فضحه سعاله .. وبأى
ثمن ؟ من أجل خمسة قروش .. آمن بالله ياخضرة المفتش ، الراجل مش
لاقى ربيع دره .. حالته وحشه خالص ..

وهكذا ، وهكذا ، ثم يخرج من هذا إلى تزكية نفسه ، فهو لم يكتف
برسله والخفراء ، بل اضطر أن يمر عليهم فى بيوتهم ، فعاد - وهو الأبى
الأنوف - والكسوف يقطر من وجهه .

ورغم حدته وشكواه من كسوفه ، كدت أسمع الشفى يمتزج فى
كلامه .. كأن الغلظة غلظتى ، وأنا المستول عن تبعه ومشاويره الضائعة ،
وعن تصرف أهل البلد جميعاً .. الشفى لأنه برهن لى أخيراً على أننى كنت

قصير النظر قليل الخبرة ، ولو أننى تركت له الأمر من مبدأه لصرفه وأراحنى وأراح نفسه وأراح الناس جميعاً ..

وكان العمدة فى كل هذه الأحاديث يكثر من التفاصيل والزخارف ، وقد علمت فيما بعد أنه كان فى أغلبها كاذباً ، وأنه ما تحرك من مكانه ، وكل ما فعله أنه أرسل مرة أبلد الخفراء لأبخل المتطوعين .. هو صاحب الفكرة وهو الذى وأدها ..

لا أدرى أى دافع دعاه إلى هذا التكويس ؟ لعله هو البخل الأصيل فى خلقه . أو لأنها أول تجربة يجد نفسه فيها مشتركاً مع أهل البلد باختيارهم فى عمل خيرى دون تدخل الحكومة .. ففرح للفكرة واستسهلها ، وعند التنفيذ فاته الثقة بنفسه وببلدياته .. أو ربما كانت الحقيقة أنه وافق على الفكرة لاشئ إلا أن يتملق موظفاً فى أول عهده ليضمن قضاء حاجاته .. فلما انتهى الموسم وسمع بقرب مغادرتك للبلد ضحى بوسيلته لسقوط غايته ..

لم أتعب نفسى فى تعرف السبب فيكفينى ما يتعبنى به العمدة من ملاحظته لى كل يوم ولته وعجنه وإلحاحه فى إيقافى على كل التفاصيل .. صدمته ذات يوم - لأنقذ نفسى - وأوقفته عن هذا التهريج .. لم أكن أقصد التخلص من مسألة الجامع بقدر ما أردت التخلص منه ، لأننى لم أتنازل عن ضرورة تنظيف الجامع ، وفكرت أن أعالج الموضوع رسمياً حرصاً على صحة البلد ..



وذات صباح هدمت الخيام فتهافت إلى الأرض - رغم خضادع

منظرها - وطوبنا طنبنها ، وانهدم السور وتضاءل المستشفى إلى عدة صناديق سارت بها طائفة العمال قاصدة بلداً قريباً حيث قررت الصحة أن نستقر بها شهراً ..

مررت بركوبتي على الدوار .. وكان العمدة كعادته على دكته ، فوقف لي كأنه يستعد لخطبة ، وأخذ يكر على سمعي اسطوانة التملق الذي اعتاد أن يكيله لكل من يحتك به من الموظفين .. لم يأت للبلد موظف مثل في الطيبة واستقامة الخلق .. البلد كلها لن تنساني ، فضلي على الجميع ، ومعروفي إلخ إلخ ..

ووضع العمدة يده في يدي .. في تلك اللحظة تذكرت شيئاً كان غائباً عن ذهني .. لمسة اليد هي التي نبهتني .. ففى لمسة مثلها ذاب من بين أصابعي ريال صحيح من أجل الجامع الذي سيقطل طول عمره كثير العناكب والتراب ، كرية الرائحة .. هل نسي العمدة هذا الريال ؟ ليس في هيئته ما يدل على التذكر ..

فهل أطلبه ؟ فتقلب مصافحة الوداع - تؤخذ على غرة - إلى تراجع وانكماش ؟ ثم هل هناك بعد ذلك أمل في الحصول عليه ؟ ربما أتحلى على الصراف ، والصراف على شيخ البلد ، وربما تبين الأمر في النهاية أنه دفع عربونا للحصير ، وبائع الحصير لا يرد العربون ..

ووقع نظري على الجامع .. في نهاية الساحة متضائل قصير .. كأنه بجانب شحاذ رث الملابس سهوت فأعطيته خطأ قطعة نقود أكبر مما كنت أنوي .. هل أبقها أم أسحبها ؟

أنبني ضميري أننى أدخله موضوعاً للمساومة .. لقد تبرعت بالريال
عن طيب خاطر ، من أجل الجامع الفقير ، فليبق نوعاً من الزكاة والقرب
والمحبة ، ولا يهمنى فى أى جيب بقى .. على أن للنقود سحراً قوياً .. لم
تطاوعنى نفسى أن أترك هذا الريال الصحيح - أربعة مثله فيكون لدى
جنيه - ولأى سبب ؟ لا أشك أن العملة سيعتقد أنه ضحك على ، وأننى لم
أقو على مطالبته إما خجلاً وإما مراعاة له ..

لا يتعبنى إلا مثل هذه المشاكل الصغيرة .. هى تافهة ومع ذلك
تختصر وتبلور فيها ما هو أهم وأعظم .. كل مرة تحيرنى بتعدد نواحيها
وأشكالها واحتمالاتها وما لها وما عليها ..

لا أدري كيف كنت سأنتهى من هذه الأفكار وأخرج برأى أطلب
الريال أم لا أطلبه .. مرت علينا - وأنا لا أزال فى ترددى - حمارة صغيرة
لها أذنان متصلبتان ، وعيون سود كبيرة واسعة .. فى حركاتها شقاوة ،
وربما كانت فى زمن طلبها .. ما أشعر إلا وحمارى يندفع فجأة وراءها
وينقذن من العملة ومن ترددى المريض ..

وقد لا تنتهى معظم مشكلات الحياة إلا على يد أمثال هذه
الحمارة ! ..

(جريدة البلاغ ، ١٩٣٦/٢٤ ، ص ٢، ٣)

صافح الأيدى الممتدة واحدة بعد أخرى ، وراقب المناديل تلوح له حتى غابت ، لا فرق بين الملح منها والكسول المجامل ، وبدأت المساكن تجرى أمامه ، وتضاءلت العمارات الكبيرة إلى منازل كالأقزام ، ثم ذابت في بيوت الفلاحين المغطاة بالقش ، وانساب القطار بين الغيطان وهو لا يزال يطل من النافذة ، تملبص البلدة من قبضة نظره سريعاً ، وتصبح صبورتهما كأنها رجع الصدى .

وكانت الشمس قد كمل غروبها فلم تبد له طهطا سوى قطعة من الليل أشد سواداً ، يشع من وسطها شريط ضئيل من النور ، هو الشارع العمومي ، على رأسه القهوة التي اقتطعت لنفسها من عمره نصيباً ، لقد أقله هذا القطار غير مرة ولكنه لم يتطلع لطحطا وهو مهتلل الوجه كما يتطلع هذا المساء ، لأنه يتركها بلا عودة ، فقد فاز أخيراً بنقله إلى القاهرة بعد أن مر عليه في وظيفة وكيل نيابة طهطا ستتان ، والنفور بينه وبين هذا البلد



يزداد يوماً بعد يوم ، وكان أكبر ما «يفلقه» غيظاً أن يجذب من منزله في منتصف الليل ويقوم «المركز» معه ويقعد . وبعد رحلة شاقة يصل إلى مكان الجريمة فيجد القاتل فلاحاً في جلباب أزرق قديم ، حافى القدمين . قد يفتش منزله ومنزل المتهم - وما هي منازل بل أكرام من الحجارة ! - فلا يجد فيها حفنة من الذرة ، ما هي الجريمة التي يمكن أن يقتربها فلاح في مثل هذا الفقر حتى يجازى عليها بالموت ؟ ..

فالقَتْلُ عند سامى - وهو متأثر في ذلك بقصص إدجار والاس - نوع من الترف ، وأكثر ما يغيظه أن يكون القتل هو الترف الوحيد الذى يعرفه الفلاح ! وينصرف سامى إلى تحقيق القضية ، وهو متأفف حائق ، يأبى أن يشرب القهوة التي يقدمها له العمدة لأن بناها قليل وطعمها كالعسل . . لن يصدقه واحد من الشهود ، ولن يكشف له أهل القاتل عن مكنون سرهم ، يلمح في ابتسامة العمدة وأعدائه أضواء من السخرية والتهكم . . تخمض الساعات والقتل لا يزال ملقى وسط التيطان كأنه نائم على جنبه ، وجهه حى لم يضع الموت عليه قناعه بعد ، فالقتل جاءه مفاجأة ، ظهره ممزق بكتل مشوهة من الرصاص أطلقها عليه من بندقية - شغل يد - متربص قريب . انكفاً فوق الجثة جمع من النساء ، لا تفرق بين العجوز والشابة ، فليس في قبضة الفقر والشقاء إلا عمر واحد ، لمن حركة الغريان العطاش لقيت بعد لآى ماء ، ثيابهن جرب السواد ، أفلا ينقضى حدادهن أبداً ؟ ! يصرخن ويترنحن ويرفعن إلى الواقفين والسماء ، نظرات تبحث عن الرحمة فلا تجدها ، فترتد ملؤها العذاب ، كأنما قد دهمهن مخاض ممزق عنيف . .

ليس هو الآن ذلك الشاب القاهرى العزيز الذى أذهله في أولى قضاياه

أن يرى تحت جلباب القتيل سكيناً نحيلاً مربوطة بقطعة من الجلد حول ساقه ، ثبت عليها نظراته هرباً من رؤية وجه القتيل المعقر ، وسماع حشجة الدم المتحدر إلى معدته من كسر قاع جمجمته ، لم يكن القتل بالرصاص - فلعل القاتل أفقر من القتيل ١- بل بالنبايت . . عجب لهذا السكين ولم ينجل أن يسأل عن سره ، فقليل له «كان يعده من قديم ، لا يخرج من داره إلا إذا ربطه ، تنوعاً ليوم أن يفاجئه عدوه فيصرعه وينكفئ فوقه ليخنقه ، فيهوى للأرض ، موهما أنه انهزم ، ولكن يده تمتد بخبث ومكر إلى هذه السكين فيشدها ويدفنها في بطن غريمه المنتصر !»

لقد ألف الآن رؤية القتل ، سواء ماتوا بالرصاص أو بالنبايت أو بالفأس . . ولم يعد يكره منظر «طلوع الروح» وإذا ذكر هذه الحوادث فكأرقام مواد وملفات بينه وبين «الرياسة» . .

وليست الجريمة وحدها هي التي كثرته في هذا البلد ، بل إنه ملّ - أليس له الحق - من الجلسة المتشابهة كل يوم في القهوة مع الأصدقاء ذاتهم والحديث هو هو لا يتغير ، ينحصر في مؤامرات تلك المرأة العجيبة التي تنتقل بين الجميع وتغش الجميع والمتحدثون كلهم أصدقاء الزوج ، حضرة . . . الموظف الجالس بالقرب منهم يلعب الطاولة . . امتحان نفوسهم ليس هو مصارعة الفحش والحنأ بالفضيلة والعفة ، بل التردد بين احتقار هذا الزوج أو الزناء له . . وهذا منتهى كرم الأخلاق والنبل في نظرهم . .

حقاً إن سامي لم يشارك في هذه الأحاديث ، ولكنها كانت تصل إلى أذنيه ، والتهمة بأنه كان ينتظرها ويتلف على سماعها ساقطة ولعدم كفاية

الأدلة» . . فكيف يسع من يعيش في هذا الجو الخائق قليل الأخبار أن يمنع نفسه من الإنصات لخل هذا التهامس والتسلل به ؟ لقد تعتمد أن يفهم الجميع أنه بعيد عن هذا الجو . . مترفع عن هذه الدنيا والسفاسف . . ويتسم سامى لأنه يذكر أمسية في منزل أحد أصدقائه إذ تدخل عليهما هذه المرأة ، فيهتم صاحبه بإسدال الستائر ويهمس لها أن لا تكون ضحكاتها عالية . . لتكون خليعة ولكن بصوت خفيض حتى لا يسمعها الجيران . . «إحنا مش في مصر والا إسكندرية ، ولا حتى وجه بحرى ، إحنا في الصعيد في طهطا ! » يستطيع سامى أن يقول إنه لم يسع لهذا اللقاء ، ولم يرج صاحبه أن يبيته له ، وإنما كان يعلم ، بفضل أحاديث الهمس - أن صديقه أكثر الجمع سلطاناً عليها ، وليس بينه وبين هذا الصديق «تكليف» فاللقاء جاء مصادفة لا أكثر ولا أقل . . ساق سامى إلى منزل صديقه دافع واحد : الفضول - أو هكذا خيل إليه ! إنه لا يريد إلا أن يرى هذه المرأة التى تدور حولها الأحاديث ، إنه يحب أن لا يقل علمه بها عن بقية جلسائه ، ولا يقول «عن خبرتهم !» لن ينصت لحديثهم فيما بعد إنصات الأعمى . ومن منا لا يكره الرجم بالغيب حين نتحدث عن النساء ؟ ولكنه لم يكذب يقرب من الباب حتى دب في جسمه ديبب الحمى ، ونزل الشيطان قلبه يوسوس له ، ثم أثابه إلى رشده مؤدب قاس رحيم فى آن واحد : اليأس ! فلا أقل له - وهو العاقل الذى لا يتجذع نفسه - فى أن يظفر الليلة بشيء فى منزل صديقه ، سيخرج كبريائه أن يحىء دوره هو الثانى ، وصديقه أقل منه فى الوظائف درجة ! وسيمنعه خجله والشعور بذلة اللقمة تلقى إليه إحساناً متسترأ فى ثوب الإكبار من أن يطالب لنفسه بالدور الأول . . ومحال أن ينحط ويقبل القرعة بيثها . . فهو والحمد لله لا يلعب القمار قط !

ولما أشبع سامى فضوله ورأى هذه المرأة رأى العين ، وعرف وجهها وجسمها وسمع صوتها ونبراته ، تخاذل لا لأن المرأة ذات فتنة أنثرته ، فهي وقاح عامية الذوق واللفظ ، بل لأن الخلاء الذى خلفه إشباع الفضول فى نفسه شبيه بمناطق الفراغ فى الجو يجذب إليه الأعاصير .

وعاد الشيطان يوسوس له فى قلبه من جديد ، وكاد يزل ، لا يهيمه أن يكون الأول أو الثانى ! ولا يكرهه أن يلعب القمار أول مرة ! ولكنه تجلد ، يمنعه كما يقول لنفسه إعترازه بكرامته . أم هل هى الحكمة والدهاء وحسن السياسة ؟ وهو يجب أن يتصف بها . إنه لم ينطق بكلمة واحدة يستجلب فيها ود هذه المرأة إليه . وصديقه شاهد عدل على ذلك . ينبغى أن يفهم الجميع أنه «شبع» - أم لعله يريد أن يقول إنه متخم ! - وأنه لا «يندلق» على أول امرأة يقابلها ؟ أى فتى هو يحسبون ؟ إنه ذو ذوق ومزاج لها تمنع الحسان ودلها . وإذا كان من البسير الوصول إليه - أو إذا كان هذا هو المأمول عنده ! - فمن العسير وفوق العسير أن يسعى هو بقدميه .

ولكن نغمة صوته خلال الجلسة كلها - سواء دار الحديث عن الجواو عن اللهو - خيط دقيق يلتف حولها يجذبها إليه شيئاً فشيئاً . . الطريق مفروش بزهر مسحور لا يرى والباب يُفتح بلا صرير . . فإذا تجلد سامى فلا شأن له بعد ذلك بالأقدار التى قد تسوق هذه المرأة - لحكمة لا نعلمها نحن ولا يعلمها أحد - إلى أحضانه ذات أمسية فى خلوة فى داره هو . .

ونظر سامى إلى ساعة وتشاءب وضرب فخذه بكفه واستأذن فى الانصراف لأن وراءه قضية هامة قد يكون الحكم فيها هو الإعدام . .

ومرت الأيام ولم تحقق الأقدار نزواتها ، ولم ير سامى هذه المرأة مرة

أخرى ، لا فى داره ولا فى دار صديقه . ، وحسناً فعلت لأنه يكره السطو على عرض رجل غلبان . إذا كانت قد نسيت أنه أيضاً قد نسيها . . . ومادم سيودع طهطا هذا المساء فهو يغفر لهذه البلدة العنيفة كل شيء ، بل سيذكرها كصديق بود كبير ، لأنها قدمت له أمثلة غريبة أخرى لم يكن يحلم بوجودها فجعلته خبيراً بالمرأة ونفسيته وإنه معتر بهذه الخبرة سعيد ، وبدأت ذاكرته تعيد عليه مغامرات ف . . . ابنة التاجر الكبير التى كانت تقفز على أربعة أسطح فى منتصف الليالى لتصل إليه ، هى فتاة غريبة تنفرج على الصور المعلقة ورسوم كتبه باهتمام وشغف وتبدو نواجذها لأنفه الأسباب . هذه الفتاة أسرت قلبه أياماً طويلاً ، وإن كانت شغلته منها «النفسية» أكثر مما شغلته كامرأة - فالعلاقات بينها لم تتعد ما تسمح به فتاة تعلم أن بكارتها شرط حياتها . . . وكان يدور فى ذهنه إلى أن يتعبه هذا السؤال : هذه المغامرات خطيرة ، وقد تسم حياة رجل مجرب ، فكيف تزول مخاطرهما لفتاة صغيرة مثلها ؟ هى تدوسها بأقدامها فلا تصل إلى فمها الحلو ، ولا تقوى على أن تحتلس من ابتسامتها بعض ما بها من وثوق بالنفس وإقبال على الحياة والتأكد من سلامة الخطوة . وكاد يؤمن بأن كل مغامرات المرأة غريزة وليست نتيجة تفكير وتدبر ، بدليل هذه الفتاة . ولو حدثها سامى عن مبادئه واعتقاداته وآرائه فى الحب والمرأة لما فهمت شيئاً ، بل لزداد ضحكها وسرورها ، كيف فاته إلى الآن أن يفهم سبب زيارتها ؟ إنها تبحث فيه ، لا عن رجل ، بل عن وكيل نيابة . أكبرهما أن ترى عن قرب ولو بثمن غال هذا الموظف الذى يخشاه الناس جميعاً وتُحكى عن سطوته الأقاصيص والذى شغل أباهما وحرمه النوم عندما كان يحقق معه فى إحدى الشكاوى . . .

وليس هذه الحوادث الجمّة - ولم تزد زيارات هذه الفتاة له عن مرتين - هي جماع ما خرج به من تجارب وخبرة .

ففى ذاكرته أيضاً . . . امرأة كان قد اطلع بفضل وظيفته فى ملف قديم على قصة لها . . . جاء ذكرها عرضاً فى شكوى ضد أحد المدرسين انتهت بنقله إلى إسنا عقاباً له على سوء سلوكه . . .

جاءت لداره ذات يوم فى زى فلاحه تبيع المسلى والبيض ولما خلعت درعها الأسود رأى تحته ثوباً مزركشاً بالزهر ، من القاهرة أو على الأقل من أسيوط ، لم تكده تكلمه حتى انهمرت من عينيها الدموع . . إنها فى مأزق شديد ، لها شكوى عند البوليس ، ومأمور المركز يساومها . . وهى امرأة عفيفة . . فلم تر مناصاً من أن تسعى إليه لترجوه أن يأخذ بيدها . . فأخذ أول الأمر يبيدها ، ثم حين رآها تمتدح نبلة وشهامته وحسن ذوقه أخذ أيضاً بذراعها وجيدها وشفتيها . . إنه لم يستعجلها ، ولم يطلب جرّاء على مروءته ، بل هى التى وهبت إلى فتنته وسحرة نفسها . . وتكررت زياراتها ووجد عندها من الإغراء والحذق فى أمور كثيرة ما شغله أياً ما وإذاقه سعادة شىء يقرب من الحب ، لأن المبيت عنده شىء أعظم خطراً ، يعتقدده الناس جميعاً . . ولكنه رآها تختتم اللذة أحياناً بالبكاء وتقول إنها زلتها الأولى . . ثم ماذا يحدث لها عندما يفارقها مسافراً إلى بلد آخر وهذا ما لا بد أن يحدث ذات يوم . . ويضحك سامى فى سره ، لأنه ليس بالغر الجاهل وهو يعرف ماضيها . . فهل يصارحها به ؟ إن الكتمان من علامات الرجل القوى ، وحدثته نفسه أن يؤجل المصارحة إلى آخر ليلة له فى طهطا . . ولكن لا . . إنه ليس بالرجل السافل ، بل سيقبلها من كل قلبه ويدعوها بالخير . . وأنسته هذه العواطف النبيلة أن يراجع كشف مصروفاته ليرى

كم اشترى لها من الأتواب والحلى . . لعلها هى سبب ضائقته المالية التى يشكو منها . .

ويحدث سامى نفسه - حين يخلو إليها - بأن هذه المغامرات كلها من نوع «راق» غير مبتذل . . فليس أروع من الحب فى بلد صغير يرفرف عليه دائماً ظل الجرمية . ويسمع فيه كل يوم عن فتاة دفعت حياتها ثمناً لمخاطرتها . . ومع ذلك فهو لم ينس فى لحظة واحدة ما يجب لوظيفته عليه من احترام وابتعاد عن المهانة . . ولو أراد - كما فعل أخونا السابق - لعد معارفه من النساء بالعشرات . ولكن هؤلاء الناس ! ماذا يحسبون علاقة المرأة بالرجل ؟ وما الفرق بينهم وبين الجيوان ؟ إنه يستطيع أن يفخر - لو أراد ! - بأنه لم يتدن إلى السلع السوقية بل اقتصر على القيم المخبوءة ، وكان جزاء صبره وقلة بضاعته عوالم من العواطف لن تصل إليها أوهاهم .

واحتفظت مغامراته كلها بعطرها وشذاها لأنها ظلت سرّاً لا يعلمه أحد ، وابتسم سامى ، يرى نفسه فى حلم لذيد ، جالساً وسط أصدقائه بالقاهرة ، كل منهم يهرف بحوادثه ، وهو صامت . هؤلاء المغفلون ! ذلك الذى يظنون أنه «خام» لا يزال على البر إنما فاقهم فى العوم والغطس . .

وكان سامى لا يزال بالنافذة ، وانعرج القطار فاستدارت البلدة وتجمست كلها أمامه ، وضائق عيناه وهو يبحث هنا وهناك عن بعض المشاهد التى يعرفها حتى غابت عن نظره . . تركها القطار . .

طهطا راقدة بين الغيطان والتخيل . . حيوان مشوه ، جسم رابض

على الأرض لا فكر له ، عيناه واسعتان ولكنه أعمى ، يتنفس ويحيا ويجد سبيله في الحياة بفضل غريزة قوية . . نومه وجوم ، واستيقاظه تحفز ، وسكونه بين هذا وذاك مخادعة ، وتهد سامى يزيل عن صدره كابوساً ، وعكف على نفسه فإذا هو ساخط عليها بعض الشيء ، لقد شغلته مغامراته من أن يتابع قراءاته . . وها هو يعود بقصص هجارد ، وشارلز جارفز ، وإدجار والاس ، وفيكتور مرغريت دون أن يقرأها . .

ولكن كل هذا العهد قد انتهى . . فهذا القطار الذى أنقذه من طهطا مع بهمة الليل سيسلمه للقاهرة فى وضح الصباح ، بلد مشرق لا يعرف وحشة الصعيد ، رحب الصدر ، تنوء فيه الفتنة القذرة ، وتذوب الجريمة المنكرة فى مكانها ولا تسمم الجو ، سيعود إلى كتبه وقراءاته ، وسيدأ كتاب الفلسفة الذى أرسله له أخوه الطالب بالجامعة ، وسيتمكن - وهذا ليس بالقليل عنده - من أن يلبس مرة أخرى قمصانه الحريرية .



ومرت أسابيع وشهور وسامى لا يفتن أن سعة صدر القاهرة تؤدى به إلى التشتت والضياع . . تتجاذبه زمر الأصدقاء من جرووى إلى سان جيمس . . ومر نصف العام وكتاب الفلسفة لم يُفتح وعلمه عن القصص الأخرى نوع من الرجم بالغيب . . ومع ذلك لم ينح على نفسه باللائمة ، لا لأن حياته الجديدة المشتتة قد أنسته مطامعه - فلن يموت فى قلب سامى ، مهما كانت الظروف ، هذا الطمع المبهم إلى شيء يرقى به ويميزه عن سائر الناس . . ولكن سر هذا الرضا غير المنتظر يعود إلى بار صغير عندما دخله بدأ فى حياته - كما يعتقد هو - عهد جديد . .

لا يتردد على هذا البار أحد من أصدقائه ؛ فالصدقة المحضة هي التي قادته إليه ، كان يسير ذات يوم في شارع عماد الدين فإذا به يقابل أحد أعيان طهطا المعممين . . وإن كانت عمامته لاتقيه من الانغماس في الكأس والارتقاء في أحضان النساء ، لو أخذه إلى جروبي وسان جيمس لضايق أصدقاءه وضيغه معا . وتلفت فإذا هو أمام بار على ناصية ، موائد قليلة وأناس أقل ، لاضجة ولا ضوضاء ، بل أنوار خافتة وأركان مستورة ، وأدار سامي الحديث بلباقه فروى له العين المعمم الخليع آخر فضائح طهطا ، هل يذكر «ح» المرأة التي فضحها المدرس ، والتي تلوك سيرتها الألسن . . لا ؟ ألم يرها ؟ كيف ذلك ؟ يالها من ماكرة ، إنها قصدت بيت خلفه وكيل النيابة الجديد في زى فلاحه تبيع المسلى والبيض . .

لم ينقبض قلبه ، ماله ولها ، قد نسيها الآن كما نسى طهطا كلها ، إن لكل جو عواطفه وهواجسه ، صادقة كل الصدق في زمانها ، ثم كاذبة كل الكذب إذا بدّل صاحبها جوا بجو . .

واقتضب سامي الحديث وأفهم محدثه أن الجلسة قد انتهت ، فقام ضيفه بوهّم سامي بالخروج أيضا فإذا به يقع في ضيف جديد ، ولكنه غير معمم ، بل له طربوش . هو في مكانه من صاحبه كاللافتة ، تعلن عن معدنه ، وقد تتحدث عن ماضيه أيضاً . . فهو طربوش له لمعة ، قمته أنظف من حافته ، إذا قلبته (لأن صاحبه لايضعه على الكرسي مقلوبا أبدا) رأيت الخوصة مقبرة ، والجلدة سوداء تفوح منها رائحة زيتية . . لا عجب أن كان صاحبه يؤمن أنه أخفق في الحياة أولا لسوء حظهِ وثانيا لقلّة

الجميل والخير عند الناس جميعا . فهؤلاء السادة الذين يَزُورون عنه إذا
رأوه في الطريق ، ألم يكونوا سواسية ، زملاء مدرسة واحدة ؟ إذا كان سوء
الخط قد أوقفه وساروا ، ألهذا وحده عذير لهم بأن ينسوا أبسط واجبات
الدوق والمجاملة ؟ وأقبل عبد الكريم على سامى بحبيبه :

- مش فاكرفى ؟ مش كنت جنبك فى سنة ثالثة رابع ؟ ..

وسامى - رغم تجاربه - فتى ذوحياء ، فأشار للزميل القديم - يتذكر
وجهه بجهد - أن يجلس ونادى ليطلب له كأسا من البراندى ، فهذا أقل
الإكرام فى بار ..

وأقبلت فتاة قصيرة القامة ، فى ثوب أسود ، قصير الأكمام ، تحمل
الكأس وإناء الثلج ، وأعدت لعبدالكريم مشروبه ، وهى لا ترفع إليه
ولا إلى صاحبه نظرها ، ثم انصرفت لتنادى الخادم فيأتى إليهما بما يطلبان
من «المزّة» .

لم يكن سامى قد انتبه لها عندما دخل البار مع ضيفه المغمى ، فقد
انشغل بالحديث عن طهطا .. مسأها الله بالخير .. وشرب عبد الكريم
كأسه جرعة واحدة ، وكاد سامى يهم بالقيام لولا أن رأى عيني جليسه
المحمرتين تلتهبان . تنبعت منهما نظرة مفترسة ذليلة فظة نحو فتاة البار ،
تلاحقها فى غدواتها وروحاتها ..

لم ير مثل هذا الجوع من قبل .. كأنما شعاع بصره مسمار محمى
بالنار .. وضحك سامى فى سره ، وغلبه الحمول النفسى الذى خلفته

جلسة صديقه المعمم ، ولم ير بأسا من أن يطيل مقامه في البار مع زميله عبد الكريم .. فلا يزال الليل في صدر شبابه ، ومال على صاحبه يسأله :

- إيه الحكاية ؟ مين البنت دى ؟

- اسمها هنا سوسو . اسمها الحقيقى لغاية دلوقتى ما عرفتوش .
لكن على مين ؟ إن كان اسمها من أسامى الجن لازم أعرفه ، أنا ماشى فى خطة ، يحى يوم أقولها بشويش لما تقرب منى . «ياست فلانة ! ليه التقل دا على ؟»

وضحك عبد الكريم ، يتصور منذ الآن انتصاره المرتقب .

- طيب ما تسألها ، يعنى هى تحبيه عنك ليه ؟

- أنا عارف البنت دى متكبرة على إيه ؟ يقولوا عنها إن أصلها طيب ومن عيلة . لكن مين عارف ، ساعات تقول عزيزة ، وساعات سميرة ، لها ميت اسم ..

- انت تعرفها من زمان ؟

- لا . من قيمة شهرين بس . وهو كمان ده أول شغلها . كان البار ده ناوى يفلس قبلها ، دلوقتى بقى أردغانة .. له زباين صُقع صحيح .. كلهم عشانها .. لكن دى بنت بتلعب بيهم كلهم ..
ومال على أذن سامى يهمس :

- وحية شرفى وشرفك ، كل اللى يقولوه عليها كذب فى كذب ، ما تصدقش ولا واحد ، وحية غجتك عندى ، ولا واحد طال منها حاجة ..

ودفع سامى الحساب ، وأخذت سوسو تعد النقود فى يدها ، قد أسبلت جفניה وانحدرت رموشها على خديها .. فابتسمت ابتسامة خفيفة

وهو ينفحها «بيقشيش» كريم . . ثم التفتت للمائدة أخرى تقول :

- حاضر ، حاضر ، حالا . .

سار سامى كعادته إلى المحطة ليركب منها إلى منزله ، ووقف أمام تمثال نهضة مصر ينتظر الأوتوبيس ، فلما جاء عدل عنه لأنه يشعر هذه الليلة بميل غريب للتسكع ، فى عضلاته همود ، وفى ذهنة أرق . ودار حول التمثال ، فإذا بنسيم رقيق يهب على وجهه ، لقد انتهى اختناق العاصمة بازدهام أهلها ، وضع يده فى جيبيه ، وسار ورأسه مائل . .

فكرة هذا التمثال ضئيلة ، تستطيع أن تقول عنها إنها صبيانية ، بدليل أنها نجحت عند مولدها كلافنة على دكاكين الحلاقين . . لو علقت فى القهاوى البلدية لم يكن بينها وبين صور الزنائق تنافر . . إنه لم يدخل منذ عهد بعيد قهوة بلدية ليرى كيف تتطور أذواق أولاد البلد ، وهذه الفتاة ماتحبرها؟ إن قلبه يحذثه بأن فى حياتها سرا . . بل إنه يجزم بأن شحوب لونها دليل على أنها مريضة بالقلب . . لقد لحظ - فى غفلة من زميله - أنها جلست فى مقعدها، أسندت رأسها إلى كفها وتنهدت . . أتكون ضحية أقدار ظالمة ؟ لقد فحصها بنظرة الخبير المجرب وليس هو بالجاهل حتى لا يلحظ أنها تفترق عن مثيلاتها . . ففيها شئ من رقى . . رقى روحانى . . يحيطها بجو مبهم غريب . . لم يسمع منها طول جلسته ضحكة خليعة ، ولم ير حركة مبتذلة ، هى شاعرة بتحديث الجلساء ، وأنها نهب نظراتهم ، ولكنها تتجاهل هذا كله ، هادئة النفس ، ابتسامتها لا تهبط إلى حد التكلف ولا ترتفع إلى حد الضحك على الذقون . . ولكن إلى متى تقوى

على صد التيار المتدفق عليها من أعين ملتبهة وسحن جشعة تدور معها أينما دارت ..

لشد ما يود أن لا تحقق ، كما أخفق مختار .. لا يصب فكرته الضئيلة في قالب يلائمها ، بل يجعل لها قاعدة ضخمة ، فماتت الفكرة وظل الحجر ، لا شك أن سذاجة هذه الفتاة وترفعها وسموها الروحي تذوب شيئاً فشيئاً في الوسط الذي تعيش فيه ، ولا يستطيع الرجل أن يستهويها بنغمة واحدة - ولم كانت رنانة ! - فترهف له أذنها وتستسلم له .. إنها الآن معقدة العواطف ، حياتها تجارب متصلة عن الرجل واستعراضها للكثير من سيوفها من الرجولة ، على نواح متباينة ، كل ناحية منها لها سحرها الخاص ، ألا تدل عيونها الساهرة على أن برأسها فكرة البحث عن رجل يجمع فضائل معارفها ولا تفوته نقيصة من نقائصهم ؟ .. إنه يؤمن بأن هذه الفتاة عميقة العواطف ، عميقة الشعور ، لها مزاج خالص لها ، هي به راضية ، ونوازع لا يشاركها فيها غيرها همى بها سعيدة .. في ثوبها ويديها والتفات رأسها دلائل قد لا يفطن لها الجميع ، ولكن هو رآها وفهمها ..

وظلت صورة الفتاة تصحبه إلى أن دخل فراشه ونام وهو لا يدرى أبودعها أم يهدا اللقاء من غد ..



وأخذ سامي يقضى في البار كل ليلائه ، وبدأت حياته تسير في برنامج جديد ، هجر جروبي وسان جيمس ، وكان من قبل لا يصبر عليهما .

ما هذا الذى قلبه من حال إلى حال ؟ إنه كزوبعة حائرة قد خمدت ، أو نسيم رقيق يوتسك أن يجن ويتقلب زوبعة .. لست أدري . لو رآه أصدقاؤه وهو جالس كل ليلة مع عبد الكريم على مائدة واحدة لما صدقوا أعينهم .. فليس هذا هو سامى الحريص أبدا على أناقة مجالسه وملابسه ، وأكله وشربه ، ولكن ماذنبه هو والظروف وحدها هى التى جعلت لهذا الصديق المبعوث قيمته الغالية ؟ لا تنحصر فى أنه يقص عليه أولا بأول مختلف الإشاعات التى تدور حول سوسو ، بل لأن سامى ، وهو لا يغفل لحظة عن كرامته ! - يعتقد أنه لو انفرد لاستلفت أنظار الناس .. واستلفت نظرها هى أيضا .. وهو ما لا يريده ..

إنه ليس كبقية الناس ، والعاطفة التى استيقظت فى قلبه ليست عامية مرذولة مثل عاطفتهم . إنه يحب الظلال والهمس والكتمان والصبر ، والصمت عنده عنوان البلاغة ، هذا هو الغذاء الذى تعيش عليه روحه المهذبة ، ولو أكلت مما يأكلون لماتت .. وماذا يمه من زن عبد الكريم ؟ قد يبدو أنه يستمع له ، ولكنه غائب الذهن ، فى رأسه صور عديدة من حب يجمعه وهذه الفتاة ..

هل تكون سوسو تحقيق ذلك الحلم الذى بعثته فى رأس سامى أحاديث أصدقاؤه كل ليلة منذ أن عاد للقاهرة عن سأمهم من حياة الوحدة ، ومن خسة الساقطات ، وتطلعهم غير المنقطع إلى فتاة - لا تزال فى عالم الغيب - فيها شيء كثير من الكمال والجمال والتسامح وكرم النفس ؟ تستقبلهم بابتسام وتودعهم - ولو كانت تعلم أن انصرافهم عنها بلا رجعه ! - بابتسام أيضا ؟ فهى التى تحمل عنهم أيضا وزر الندم .. فتاة تجلو نفوسهم وتفتح فى قلوبهم خزائن طال إقفالها ، فماتت فى ظلماتها

أجنة لو عاشت لكانت البذور والشموس . . وانطفأت ألوان صور ما
أجلها لورأت النور . . فأصبحت مسخا مشوها كئيبا .

وملأت هذه الأفكار رأسه حتى أصبحت شغله الشاغل ، على أنها
كانت في كثير من الأحيان تخونه ، فينبأ هو يدفعها إلى سماء عالية إذاها -
وكانها تهزأ منه - تهبط به إلى الجضيض وتشغله بأشياء صغيرة وتجسمها في
نظرة فيوقف عليها اهتمامه ويجد فيها ذهنه الذي يأكل بعضه بعضا طعاما
يزيد نهمه وافتراسه لنفسه .

فقد أخذ سامى - يوما بعد يوم ، لا يمل ولا ينسى - يعد أثوابها ،
ويراقب أحذيتها وجواربها ، وكل حركاتها وإشاراتنا ، وأصبح ذهنه ترتج
فيه متناقضات من حب وجوارب نيلون ، من آمال وأقراط ، من عواطف
هائجة مكتومة وعقود من اللؤلؤ . . وأنا شيد غرام وصباية وأحذية لامعة
بكعب عال . . وأصبح يستطيع أن يحكم هل ثوبها جديد أم قديم ، وهل
لبسته من قبل وكم مرة . وأسلمته هذه الرقابة إلى مراة شك ينمو في قلبه
شيئا فشيئا . .

- من أين لها هذه الملابس الغالية كلها ؟

لجأ إلى عبد الكريم وأخذ يبحث معه هذه العقدة العويصة :

كم يبلغ مكسبها في اليوم ؟ وهل يكفيها لشراء هذه الأثواب كلها ؟
واضطر سامى إلى الاقتناع بأن لها موردا آخر . . وجيبا لا ينفذ . . ولكن
من يكون صاحب هذا الجيب ؟

وبعد أيام جاءه عبد الكريم وهو يتسهم فبدت أسنانه الصفرة :

«وشرفك اللى يضحك على ما اتخلفش لسه !» إنه قام بتحركات

واسعة ، واتصل بأحد كبار القوادين الذى يجمع فى العوامات هوانم العائلات وأبناء الذوات وأخذ يحاوره ويداوره إلى أن استخلص منه أنه يعرف فتاة البار وأنه يطلبها فى بعض الاحيان كلما وقع على صيد ثمين فتلبى ولا تتأخر ..

لم يدر عبد الكريم مختلف العواطف التى ثارت فى قلب سامى عند سماعه هذا الخبر .. هو من ناحية متألم ، لا لأن هذه الفتاة الصغيرة المريضة ، ضحية الأقدار الظالمة ، دمية يتبادلها أذرع خشنة حيوانية وأفواه بخراء أو غمורה وإنما لأن ظنه بها قد خاب وحلمه الذى رباه وتعهده قد مات فى عنفوان صباه ، وهو من ناحية أخرى يهين نفسه على صبرها وحنكتها فجراؤها الآن أن تجد بعد الدور سكون وراحة هى أشبه شىء بالنقاها أو الشفاء .. لقد رضيت كرامته ! إذاً هذه الفتاة التى تشمخ بأنفها هنا للسبأ تضع هذا الأنف ذاته فى التراب لأناس آخرين .. حسب الرجل أن يكون فى يسراه ثمنها حتى تكون هى فى يمنه .. لا مزاج ولا ذوق .. ولا عاطفة ! ..

ومال سامى فى مقعده يفكر .. آه لو استطاع أن يدخل عليها فى خلوة تهتكها فيجدها مع رجل حقير الملامح وإن كانت النقود تسيل من جيبيه ، كما يسيل لعابه من فمه المخمور .. سيجدها فى جلسه مبتذلة خليعة ، أمامها بقايا طعام وشراب ، تحتلط على الأرض أعقاب السجائر والبصقات .. لا روح ولا ريحان ولا حب ولا حنان .. لا شعر ولا أناشيد .. هذا التبذل أليق بها وأنسب .. سينظر إليها من عند الباب نظرة واحدة بعينين نصف مطبقتين ، لن يكون مقطبا غضبا ، بل سيكسو شفثيه بابتسامة خفيفة .. وقد يهز لها رأسه .. لا عتابا ، بل ليبرهن لها أنه

لا يأبه بها . . وعندما يتركها سيشعر بالهدوء ، وأن الأرض أثبتت ظهورا من السماء . .

ليس في قلبه تشف . . فليس بين أفكاره وآماله مكان لمثل هذه الشهوة الدنيئة . . إنه كان يعيش كتاجر مرتبك في وجل مستمر من المصيبة القادمة ، فلا داعى للدهشة إذا صفى حسابه وظهر إفلاسه أن تشمله راحة ويتملكه هدوء حلو لذيد .

وكان ذهن سامى يتنقل بسرعة من أسوأ الفروض إلى أبدع الأحلام ، فيصور نفسه قد لقي هذه الفتاة في مكان لا يمه منه الحدود والأوصاف ، وإذا به يقطف من ثمار حبه وحبها ما نضج ، هو يشعر من قبل اللقاء أن لذته لن تمت لجسده بسبب . . وإنما سيكون مولدها وعمرها وخلودها تحقيق الحلم البعيد المنال الذى طالما سعى إليه وجرى وراءه ، التقاء روحه بروحها . فهو يود من أعماق قلبه أن لا تنحى عليه الفتاة وقتئذ والهة أو تفصح له عن هيامها . . فهذه زيادة تنقص من كمال حلمه ، فقد يهوس له هامس بأن هذا الحلم لم يكن صعب المنال كما ظن ، وأن جريه كان عبثا . لا يريد أن يحس منها أنها تعطينا لتأخذ وأنها خسبت حساب ذلك اللقاء واستعدت له ، وإنما تعطينا لأنها وجدت نفسها من حيث لا تشعر في نهاية رحلة طويلة ، عاطفته وحدها هي اليد التى قادتها ، جنبتها المسالك المملة التى تألفتها إلى طريق وارفة الظلال لها سحرها وفتنتها ، وكان الطريق يضيق بها شيئا فشيئا حتى وصلت إلى حيث لا يمكن الاستمرار ولا تمكن العودة إلا إذا مس جسمها جسمه . . وهى ليست متعبة ولا نادمة فالساعة التى هى فيها لذة ونشوة تملك القلب والروح والنفس فلا مكان فيها لغيرها ، فدارت ، وواجهته . . وعلى مرأى من نفسها وبحركة فيها

كمال النبل والكبرياء ، وإشعاع روحها ينبىء عن إرادة مستقلة لها كرامتها ، تركته يجنى ما يريد ، لأن الذى يريده هو بعينه الذى تريده . . لم يكن هذا اللقاء فى حسابها ، ولا جاء بفضل المكر والحيلة والمؤامرة . . وأكبر ما يهز شعوره عندئذ ليس هو التقاط الثمرة وإنما غموضها وإشراقها ، وإبهام نفسيتهما المكتشفة له حتى أعماقها . . لا يستطيع أن يجزم ماذا تكون خطواتها الأولى عندما تستفيق



وحاسب سامى نفسه حسابا عسيرا . . أليس من الحق أن يسارع إلى تصديق رجل مخرف مجذوب معتوه مثل عبد الكريم ؟ هل هناك دليل واحد على صحة قوله ؟ إنه يؤمن بأن هذه الفتاة غير مبتذلة ، وأضعف الايمان أن يسلّم أيضاً بأن لها صديقاً يصرف عليها . . ولم لا ؟ وما شأنه هو بهذا ؟ أبلغت به ضالة الروح والחס أن يكون صوزة أخرى لهذا النموذج العجيب من أفندية هذه الأيام ؟ هذا الفتى السمج الغث الفقير لا يقع على فتاة حتى يطالبها - كأنها أمة وهو سيدها - أن تمحو من وجودها كل شيء إلا شخصه الكريم ؟

إن سامى لا يضع لحيه شروطا ، وهو أرفع من الغيرة ، والتحكم والاستبداد ، لأنه يفهم الأرواح ويقرأ أسرار النفوس . . إنه يحب هذه الفتاة فى مجموعها . . لا فى تفاصيلها . . إن فهمه لا يضيق - بل يتبلد - بالتناقضات والألغاز والأحاجى ، وقد يكون النقص عنده عنوان الكمال . . فسامى يؤمن بأن الكمال شيء عمل . . ثم لماذا نتعب أنفسنا فى طلبه وهو مستحيل المثال ؟

كانت الصلة بين سامى والفتاة لم تتعد - رغم توالى الأيام - النهج المألوف بين الجليس في البار لأول مرة وبين الفتاة التى تسقيه خمرا .. غير أنها إذا رآته فى مقعده أسرعت ، دون أن تسأله عن طلبه - وجاءته بكأس من الويسكى من النوع الذى يشربه ، وجاءته بنقل مما يحبه ويألفه ، فهى إذاً تميزه عن بقية الجلاس ، وتفهم مزاجه ، وقد تقف أمامه وهو يحدثها عن الحر والسينما وهو مطرق أو يخالسها النظر فتزد عليه متمهلة غير متأففة .. وربما فهم سامى أنها تطيل وقفتها وتنسى من أجله بقية الجلاس .. لا تنفك يدها تعبت بعقدتها تلفه حول أصابعها ثم تفرده ، وخيل إليه أن هذه الحركة تحاشى معانى نظراتها .. وأنها لغة أخرى من اللغات التى تحيدها ، وإن كانت لا تتكلم إلا العربية أو البلدية .. لغات تحذف منها الأسماء ، ولا تبقى فيها إلا على الأفعال .. هل تقول له شيئاً ؟ إنه يرى مرة أنها تقول له شيئاً كثيراً ، ويرى مرة أنها لا تقول له شيئاً ، لا كثيراً ولا قليلاً .. أليس هذا هو الغموض الجميل بعينه ؟ إنه واثق أن الجواب على ندائه ستنطلق به ذات يوم نظراتها وحبات عقدتها ..

وكان سامى قد غافل نفسه ، وطلب إلى عبد الكريم فى ساعة فقد فيها اتزانته ، أن يهين له - بفضل هذا القواد - لقاء مع الفتاة .. فوعده عبد الكريم خيراً وأكد له أنه سينجح فى مسعاه .. ثم مرت أيام كثيرة وهو يعتذر بأسباب شتى .. أسباب واهية فى نظر سامى .. إذاً عبد الكريم كاذب فى القصة من أولها لآخرها .. وعاد سامى إلى أحلامه عن الأناشيد والطريق المعبد بالزهور المسحورة والباب الذى يفتح بلا صرير .

وجاء العيد الكبير والأدلة على كذب عبد الكريم لا نقض لها ولا إبرام .. فرأى سامى أن يتتهز فرصة العيد ويخطو هذا الحاجز الذى

يفصل ما بين فتى خجول معتر بكرامته وفتاة غامضة مبهمة . . ذات فتنة وسحر . . خطوة واحدة تكفيه ليعلم هل يستطيع اجتياز هذا الحاجز فلا يكون وراءه عائق بعد ذلك أم يجده مستعصيا عليه فيسلم - كالمثل الكبير عند إسدال الستار - وتنتهى الرواية . . وليس معنى انتهائها على هذه الصورة أن الزهور التى نثرها على الطريق قد ذبلت ولم يبق منها إلا الأشواك ! لا ! إنها زهور لن تذبل ، لأنها من غرس حديقته هو ، إنها ستعيش أبداً ، لأنها مرتبطة بذكرى خالدة فى نفس تتسع للمتناقضات والأحاجى والألغاز .

ولم يتكرر سامى شيئاً جديداً وزعمد إلى الحيلة القديمة التى جرى عليها بنو آدم منذ أن انشقوا إنائاً وذكوراً . .

سيقدم لها هدية . . زجاجة عطر غالية . . ولكن أيليق بكرامته أن يتقدم هو بها إليها . أليس فى هذا نكران لمبادئه كلها ؟ وماذا يكون حاله لو لوت خرطومها وزجرتة ورفضت هديته ؟ ها هو عبد الكريم أمامه مثال الرسول الأمين ، الطبع الذى يزج بنفسه فى كل مأزق من أجله . فلماذا لا يكلفه نيابة عنه ، فإن قبلتها فى لفرحته وإن رفضت . . صان ماء وجهه .

وجاء بزجاجة عطر صغيرة تحمل اسماً يوحى بالحب والليل تنام وسط فراش حريرى . . من يدرى ! ربما أذكت هذه الزجاجة الخرساء بين قلوبهما عطراً أرق وأبهى من عطرها ؟ وتسلمها عبد الكريم بعد أن فهم مهمته ووعد أن يؤديها بكل حذق ولباقة وظرف .



وفي المساء المتفق عليه سهر عبد الكريم إلى أن جانت ساعة
«التشطيب» وانزوت الفتاة على مائدة في ركن فتقدم لها عبد الكريم وانحنى
يقول :

- تعرفي ! احنا دلوقتي طلّع علينا يوم الوقفة . وأحب أعيد عليك
وأقول لك كل سنة وانت طيبة ، لكن مش عارف ، كلام الناس ده مش
كفاية عليك .

والتفتت إليه سوسو وماتت الابتسامة على شفتيها ، فقد كان خداه
يرتعشان ودل تلغمه على شدة سكره .

واستمر يقول :

- الله أعلم . أنا بقى لى كام يوم أدور على حاجة تليق بمقامك عندي
على العيد . تقبليها يا ترى منى ولا متقبلهاش ؟ أنا ما فضيلش حد في
الدنيا . . انت عندي أعز شيء في الوجود .

وأخرج عبد الكريم العلبه من جيبه بيد مرتعشة قدمها بذلة للفتاة . .

علشان العيد وعلشان خاطري تقبلي الهدية دى منى . حاجة صغيرة
صحيح ولا تليقش بالمقام .

دهشت الفتاة حينما رأت الزجاجاة الغالية في يد هذا السكير الفقير
الذى لا يشرب الا على حساب الناس . . لم يترك لها مجالا للتردد ، بل
وضع هديته على المائدة وعلّق بوجهها عينين متلهفتين محمرتين ، تكاد
تلتهم نظرتها وجهها وتترك به آثارا .

أرادت أن تتخلص من هذا السكير وتقطع حديثه وتتقى شر خبله ،
وإذا كان الثمن أن تأخذ هذه الزجاجة الجميلة فلا بأس .

- أنا متشكرة خالص ، مرسى . مرسى لظرفك .

قامت لتتصرف ، فأدار عبد الكريم وجهه للطريق ، أين هؤلاء
الأصدقاء الذين يزورون عنه ؟ أين هم ليروا أنه لا يزال في حياة الترف
معهم على قدم المساواة ؟ كم منهم من يطمع في أن يقدم لسوسو هدية .
وكم منهم من ترفض له هذه الفتاة أغلى هداياه . . تألق وجهه واستقام
عوده ، وانحدر طربوشه على مؤخرة رأسه . . وأخذ يلمظ بشفتيه . .

ونسى عبد الكريم في نشوة انتصاره خيائته لوعده . .

(المجلة الجديدة ، العدد ١٠ ، أغسطس ١٩٣١ ، ص ص ١٢٤٥ - ١٢٥٦)

الشاعر بصير

انتهى الشاعر الهائم إلى ضفة الغدير ، واستقرّ على حجرٍ يتيم مخضّر
المشيب ، أحاله من معنى ضائع إلى قاعدة مطمئنة لتمثال فذّ بديع . ترك
الشاعر نفسه على سجيّتها ، فأعانت على فضّ أغلال الزمن ، وعلى الفناء
في الوجود ، فسمعت أذناه الموسيقى الصامتة وانطوى في محجره مدار
الأفلاك ، وحنّا عليه الإلهام فسما إليه ، وكانت بينهما ضمة الأحبة بعد
فراق .

طلّقت اليمامة تراقبه من غصن شجرة قريبة ، باليمنى واليسرى ،
وكانت قد انقطعت عن شدوها-حذر الإنسان الغشوم ، فلما أحسّت أنه
الشاعر الموهوب ، زوّت إليه أجمل التغاريد .

أسلمت إليه المعاني والانغام والألفاظ قيادها ، بريئة من الزيف
والخداع ، ومن اللبس والغموض ، ولكن أين القلم ؟ حتى يسطّر ما
يختلج في طمايا نفسه ؟

جال شعاع مقلتيه في الفضاء فلما مرَّ بالشجرة ، هبطت اليمامة من
غصن إلى فنن ، وهتفت به :
- سَلِمْتُ ، ماذا تريد ؟
اتَّجه إلى الصوت ، وابتسم وقال :

- هل لك يا أختاه أن تسعفيني بريشة من جناحك أسطر بها الوحي
الجميل ؟
قالت اليمامة :

- اليوم يومى ، وليس عندي غير طُلبتك ، وهانت ريشة من جناح ،
مثلا عندي كثير .
وهبطت إليه الريشة مع النسيم ..

لم يكد الشاعر يكتب بالريشة كلمتين أو ثلاثا حتى ضاق ذُرْعاً ببطئها
فاستعجلها ، فانقصفت بين أصابعه .
- أيتها الأخت الحنون ! هَلَّا أسعفتني بريشة أخرى .
نزعت اليمامة ريشة بعثت بها إليه كأنها قُبلة .
وكان مصيرها مصير الريشة الأولى .

وتتابع عطايا اليمامة للشاعر ، ثم تهلك بين يديه ، واحدة بعد
أخرى ، حتى قال لها وهو ضجر يغلو صدره ويهبط .
- ريشة أخرى ، عَجَلِي ، عَجَلِي ..

لم يبق في جناحيها سوى ريشة واحدة صغيرة رقيقة ، كانت تخفى بين
الزغب ، وخشيت أن يستخفها النسيم ويبتعد بها ، فهبطت اليمامة إلى
الأرض ! كأنها تهوى من شاهر ، وسعت إليه متهالكة تحمل عَكَازها

بمنقارها ، وارتعت عند أقدامه تلهث بجراحها . كسيحة السيرة في قبضة
الثرى .

وافترّ الشاعر عن ابتسامة الفرح ، أعاد للكون وديعته بعد أن صبغها
بالوان نفسه الغنية .

وطأطأت اليمامة رأسها ، وقد غمرتها سعادة لاحد لها ، وضمت
اليها بقايا جناحيها العاجزين ، وجمعت شجاعتها ، ومدّت له طوقها ،
وسألته بعيون تفيض محبة وحنانا :

- ماذا كتبت ؟

- قصيدة . .

- فيم ؟

فمنحها وجهها تفيض عيناه بهجة وبشاشة وهو يقول :

- في التغنى بجمال الطير وهو يسبح بجناحيه في جو السماء ! .

(مجلة «الكتاب» ، فبراير ١٩٥٢ ، ص ١٨٧)

فهرس

٨.....	● أم العواجز.....
٢٠.....	● مرآة بغير زجاج.....
٣٩.....	● احتجاج.....
٦٠.....	● إفلاس خاطبة.....
٧١.....	● كوكو.....
٧٨.....	● صورة.....
٨٧.....	● تنوعت الأسباب.....
٩٨.....	● وراء الستار.....
١٠٥.....	● ذكريات دكان.....
١٢٧.....	● قصة في عرضحال.....
١٣٤.....	● عقرب أفندى.....
١٤٢.....	● فى السينما.....
١٤٩.....	● الدرس الاول.....
١٦٢.....	● صحوة.....
١٧٠.....	● حصير الجامع.....
١٨٨.....	● إزازة ريحة.....
٢١٢.....	● الشاعر بصير.....

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٨٩٦٦

I.S.B.N 977 - 01 - 6190 - X



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود
ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه... هكذا تواصل مكتبة الأسرة
عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل
. للشاب. للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع
نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية وما زال الحلم
يخطو ويكبر ويتعاظم وما زلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة
لكل أسرة... وأنى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مزدهرة تشهد
بأن مصر كانت وما زالت وستظل وطن الفكر المتحرر والفر
والحضارة المتجددة.

هــوزان مبارك

Bibliotheca Alexandrina



0402020



مركز المرأة للدراسات والبحوث
للطفول - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية التكاملية

١٢٥ قرشاً

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع